العالم القديم والحديث

obeikandl.com

الفصل الأول

اليهود: البوادر

(١٤٩٢-١٧٠٠)

weikandl.com

شهد عام ١٤٩٢ ثلاثة أحداث بالغة الأهمية فى إسبانيا، وكان الناس يرونها خارقة آنذاك ولكننا نستطيع بفضل خبرتنا الحالية أن نرى أنها كانت من السمات المميزة للمجتمع الجديد الذى كان يولد ببطء، وكانت آلام مخاضه مريرة، فى غرب أوروبا، فى آخر القرن الخامس عشر، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهى السنوات التى شهدت تطور ثقافتنا الغربية الحديثة، ومن ثم فإن عام ١٤٩٢ يلقى الضوء على بعض اهتماماتنا ومعضلاتنا الخاصة.

أما أولى تلك الأحداث فقد وقعت فى يوم ٢ يناير عندما دخلت جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابيلا مدينة غرناطة، وكانت من المدن الدول. وكان الملكان يدينان بالكاثوليكية، وتمكّنا عن طريق الزواج قبل فترة قصيرة من توحيد مملكتين قديمتين من ممالك شبه جزيرة أيبيريا هما مملكة أراغون وقشتالة. وكان الجمهور تغمره أعمق المشاعر وهو يشهد العلم المسيحي يرتفع فى احتفالات النصر على أسوار المدينة، وعندما انتشرت أنباء الفتح، دقت الأجراس فى كنائس أوروبا كلها تعبيراً عن النصر، فلقد كانت غرناطة آخر معقل إسلامى فى بلاد المسيحية. وكان الناس يقولون إنه إذا كان الصليبيون قد أخفقوا فى الشرق الأوسط، فإن المسلمين قد أُخرجوا من أوروبا أيضاً. وفى عام ١٤٩٩ خُيّر المسلمون المقيمون فى إسبانيا بين اعتناق المسيحية وبين الترحيل من البلاد، فأصبحت أوروبا خالية من المسلمين وظلت كذلك قروناً معدودة. أما الحدث الثانى الذى وقع فى تلك السنة الحافلة فكان فى يوم ٣١ مارس، وهو توقيع فرديناند وإيزابيلا "مرسوم الطرد" الذى كان

يرمى إلى إخلاء أوروبا من اليهود، وقد خُيّروا أيضًا بين التعميد أى اعتناق النصرانية وبين الترحيل. وكان الكثيرون من اليهود قد عز عليهم فراق وطنهم فى الأندلس (وهو اسم المملكة الإسلامية القديمة) إلى الحد الذى جعلهم يعتنقون المسيحية ويظلون فى اسبانيا، ولكن عددًا يبلغ نحو ٨٠٠٠٠ يهودى عبروا الحدود إلى البرتغال، وفرّ قرابة ٥٠٠٠٠ إلى الامبراطورية العثمانية الإسلامية الجديدة حيث قوبلوا بالترحاب الحار. وأما الحادثة الثالثة فتتعلق بأحد الأشخاص الذين حضروا الاحتلال المسيحى لغرناطة، إلا وهو كريستوفر كولومبوس، الذى كان يتمتع برعاية الملك فرديناند والملكة إيزابيلا إذ قام فى أغسطس بالإبحار من إسبانيا بقصد اكتشاف طريق تجارى جديد إلى الهند فانتهى به الأمر إلى اكتشاف الأمريكيتين.

ويتجلى فى هذه الأحداث مزيج مما أتى به مطلع العصر الحديث من أمجاد وضياع، إذ كان أهل أوروبا، على نحو ما بينته رحلة كولومبوس بوضوح وجلاء يقفون على مشارف عالم جديد، فأخذت آفاقهم تتسع وهم يدخلون أصقاعًا لم

تطأها أقدامهم من قبل ولم تتضمنها خرائطهم - جغرافيًا وفكريًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا. وكانت منجزاتهم كفيلة بأن تجعلهم سادة المعمورة، وإن كان للحداثة جانبها المظلم أيضًا. فكانت إسبانيا المسيحية من أقوى الممالك الأوروبية وأكثرها تقدمًا، وكان فرديناند وإيزابيلا يعملان على خلق دولة من الدول الحديثة ذات السلطة المركزية التي بدأ ظهورها في مناطق أخرى من العالم المسيحي، ولم تكن مثل تلك المملكة لتسمح باستمرار المؤسسات المستقلة القديمة ذات الحكم الذاتي - كالنقابة أو الشركة أو الجالية اليهودية - وهي التي تميزت بها العصور الوسطى. وبعد توحيد إسبانيا، الذي اكتمل بفتح غرناطة، بدأت أعمال التطهير العرقي، ففقد اليهود والمسلمون ديارهم. كانت الحداثة بالنسبة للبعض مصدر قوة وتحرير وإثارة، وكانت للبعض الآخر - بل استمرت - مصدر قهر وغزو ودمار، واستمر هذا النسق من انتشار الحداثة في مناطق أخرى من العالم. فإذا كان برنامج التحديث برنامج تنوير نجح آخر الأمر في تعزيز القيم الإنسانية، فإنه كان يتسم بالنزعة العدوانية أيضًا، والواقع أن بعض الذين خبروا الحداثة من أبناء القرن العشرين فاستشعروا فيها تلك النزعة العدوانية في المقام الأول، أصبحوا من الأصوليين.

ولكن ذلك لم يقع إلا في المستقبل البعيد، فلنرجع إذن إلى القرن الخامس عشر حيث لم يكن أبناء أوروبا يستطيعون التنبؤ بالأبعاد الهائلة التي سوف يكتسبها التغيير الذي بدأوه، ففي غضون القرون الثلاثة التالية نجحت أوروبا لا في تغيير مجتمعاتها سياسيًا واقتصاديًا فحسب، بل أيضًا في تحقيق ثورة فكرية، إذ انعقد لواء النصر للعقلانية العلمية التي تمكنت تدريجيًا من الإطاحة بطرائق الفكر والإحساس القديمة. ولسوف نتناول بالتفصيل، في الفصل الثالث، الفترة التي أطلق عليها اسم فترة التحول الغربي الأعظم، ولكننا لن نستطيع تقدير كل ما ترتب عليها ودلالاتها الكاملة إلا إذا فحصنا أولاً نظرة الناس إلى العالم في الفترة السابقة لظهور العالم الحديث. فلننظر إذن إلى الطلاب والأساتذة في الجامعات الإسبانية وهم يناقشون الأفكار الجديدة التي أتت بها النهضة الإيطالية بحماس شديد، فلولا المكتشفات العلمية الجديدة، مثل البوصلة المغناطيسية أو المعلومات الفلكية الجديدة ما استطاع كولومبوس أن يقوم برحلته ! والواقع أنه ما إن حل عام

١٤٩٢ حتى كانت العقلانية العلمية الغربية قد أصبحت ذات كفاءة باهرة، إذ بدأ الناس يكتشفون الإمكانات الكامنة فى المنطق العقلانى، وهو ما كان اليونان يطلقون عليه لفظة "لوغوس" [التى تعنى المنطق، بما فى هذه اللفظة من دلالة أصيلة على الكلام والفكر معًا] وكان ما اكتشفوه يزيد عما عرفه أى عصر مضى، وأهم عناصره النزوع الدائم إلى الابتكار. وتمكن الأوروبيون بفضل العلم الحديث من اكتشاف عالم جديد كل الجدة، كما تمكنوا من السيطرة على البيئة بصورة لم يسبق لها مثيل. ولكنهم لم يكونوا قد تخلوا بعد عن الأسطورة. كان كولومبوس ملمًا بالعلم الطبيعى، ولكنه كان لا يزال يألف الكون الأسطورى القديم، ويبدو أنه كان ينحدر من سلالة أسرة يهودية اعتنقت النصرانية، فظل اهتمامه قائمًا بما يسمى "القبالاه"(*) أى التراث الصوفى اليهودى، ولكنه كان مسيحيًا مخلصًا وأراد أن يفوز للمسيح بالعالم. وكان يأمل أن يتمكن عندما يصل إلى الهند من إقامة قاعدة مسيحية ينطلق منها لفتح بيت المقدس بالقوة العسكرية. كان الناس فى أوروبا قد بدأوا رحلتهم إلى الحداثة، ولكنهم لم يكونوا قد حققوا الحداثة الكاملة بالمعنى الذى نعرفه. إذ كانوا لا يزالون يرون فى أساطير المسيحية ما يستطيع أن يحقق لكشوفهم العقلانية والعلمية معنى ومغزى.

ومع ذلك فقد كانت المسيحية تمر بمرحلة التغيير، إذ تزعم الإسبان حركة الإصلاح المضادة التى بدأها مجلس ترينت (١٥٤٥ - ١٥٦٣) وهى حركة تحديث جعلت الكاثوليكية القديمة تتناغم مع روح الكفاءة والتنظيم التى سادت

(*) "القبالاه" Kabbalah هى مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود . والاسم مُشتق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو ما تلقاه المرء عن السلف ، أى "التقاليد والتراث" . وكانت الكلمة فى بداية الأمر تشير إلى تراث اليهودية الشفهى المُتناقل ، المعروف باسم "الشريعة الشفوية" ، ولكنها منذ القرن الثانى عشر أصبحت تعنى "أشكال التصوف والعلم الخاخامى المتطور" ، بالإضافة إلى مدلولها الأوسع وهو سائر المذاهب اليهودية الباطنية . وقد أطلق العارفون بأسرار القبالاه ("مقوباليم" بالعبرية و"القباليون" بالعربية) على أنفسهم لقب "العارفون بالفيض الربانى" . وتراث القبالاه الصوفى تراث ضخم ، تمثل فى عدد من الكتب مثل "الزوهار" و"الباهير" وغيرهما . وحل محل التوراة والتلمود .
لمزيد من التفاصيل ، انظر : عبد الوهاب المسيرى ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ٨ مجلدات (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٩) ، م ٥ ص ص ١٦٣ : ١٨٩ . يُشار لها فيما بعد باسم : "المسيرى ، الموسوعة" (المترجمان) .

أوروبا الجديدة، فأصبحت الكنيسة، مثل الدولة الحديثة، هيئة تتسم بالمركزية، ودعم المجلس المذكور سلطة البابا والأساقفة، وأصدر لأول مرة مجموعة الأسئلة التي تُطرح على جميع أبناء الدين تحقيقًا للوحدة المذهبية، كما قرر النهوض بتعليم الكهنة حتى تزداد فاعلية مواعظهم، وبدأ ترشيد الطقوس وأشكال العبادة التي يمارسها العامة، إلى جانب التخلص من بعض الشعائر التي كان لها معنى قبل قرن واحد ثم فقدت ذلك المعنى في العصر الجديد. واستمد كثير من الكاثوليك الإسبان إلهامهم من كتابات المفكر الإنساني الهولندي ديزيديريوس إيرازموس (١٤٦٦ - ١٥٣٦) الذي كان يريد إضفاء الحيوية على المسيحية عن طريق الرجوع إلى النقاط الأساسية، وكان شعاره هو العودة إلى "المنبع" (Ad fontes) وكان إيرازموس يرى أن العقيدة المسيحية الأصيلة للكنيسة الأولى قد دفنت تحت تل من النصوص اللاهوتية القروسطية(*) الميتة، وأن هذه الإضافات المتأخرة إذا أزيلت، وعاد المسيحيون إلى المنابع الأولى - أي إلى الكتاب المقدس وآباء الكنيسة - فسوف يسترجعون النواة الحية للأناجيل ويستشعرون ميلاداً جديداً.

كانت المساهمة الإسبانية الرئيسية في حركة الإصلاح المضادة مساهمة صوفية، إذ أصبح المتصوفون في شبه جزيرة أيبيريا بمثابة الملاحين الذين يستكشفون العالم الروحي، مثل عظماء الملاحين الذين يبحرون لاستكشاف مناطق جديدة في العالم المادي. وكان التصوف ينتمي إلى المنطق الروحي وعالمه، ويعمل في نطاق اللاوعي الذي يغلق أبوابه في وجه الملكات العقلانية، ولا يمكن استشعاره إلا بأساليب أخرى. ومع ذلك فقد كان المصلحون من المتصوفة الإسبان يريدون أن يقللوا من العشوائية وغرابة الأطوار اللتين يتسم بهما هذا اللون من النشاط الروحي، وأن يقللوا من اعتماده على الأهواء المتقلبة للمرشدين الذين لم يتلقوا التأهيل الكافي. وهكذا قام القديس يوحنا الصليب (١٥٥٢ - ١٥٩١) بتنقية الشعائر من الطقوس المشكوك فيها والقائمة على الخرافة، بحيث تصبح التجربة الصوفية أكثر انتظامًا، وبحيث يعرف متصوفة العصر الجديد ما يتوقعونه

(*) نسبة إلى القرون الوسطى.

عند الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ويحيطون بأساليب تفادى المزالق والمخاطر التى تحفل بها الحياة الباطنة، والانتفاع بطاقاتهم الروحية بصورة مثمرة.

أما جمعية يسوع فقد كانت أكثر حداثة وإرهاصاً بما يخبئه المستقبل، وقد أنشأها جندى سابق اسمه إغناتيوس اللُيولى (١٤٩١ - ١٥٥٥) وكانت تجسيداً لروح الكفاءة والفعالية التى أصبحت الطابع المميز للغرب الحديث. إذ عقد اغناتيوس العزم على استغلال قوة منطق الروح استغلالاً عملياً، فكان اليسوعيون من أتباعه لا يودون إضاعة الوقت فى أساليب التأمل المطوّلة التى وضعها القديس يوحنا الصليب، ولذلك أعد ما أسماه التدريبات الروحية والتى تقتضى قضاء ثلاثين يوماً فى عزلة، تجرى خلالها تدريبات منتظمة، وتستثمر فيها كل لحظة، بحيث يمكن القول بأن اليسوعى يأخذ دورة تدريبية مكثفة فى التصوف، وما إن يستكمل المسيحى اعتناقه الحق للدين حتى يبدأ فى تصحيح أولوياته ويجهز نفسه للعمل. وكان ذلك الإلحاح على المنهج والنظام والترتيب يشبه العلم الجديد، فكان اليسوعيون يستشعرون وجود الله باعتباره قوة دينامية تدفعهم إلى كل مكان فى العالم، على نحو ما تدفع المستكشفين. فاتجه فرانسيس خافيير لنشر الدعوة فى اليابان (١٥٠٦ - ١٥٥٢) وروبرت دى نوبيلى (١٥٧٧ - ١٦٥٦) لنشرها فى الهند، وماثيو ريتشى (١٥٥٢ - ١٦١٠) لنشرها فى الصين. أى إن إسبانيا لم تكن قد تخلت عن الدين بعد، فى أوائل عهدها بالحداثة، بل تمكنت من اتخاذ خطوات إصلاحية لاستغلال فجر الحداثة وما أتى به من أضواء النظرات العميقة فى توسيع نطاق رؤيتها وقوتها.

وهكذا كانت إسبانيا فى مطلع حداثتها جزءاً من طليعة القائمين على مسار الحداثة، ولو أن فرديناند وإيزابيلا اضطرا إلى وضع القيود على تلك الطاقة العارمة، إذ كانا يحاولان توحيد المملكتين اللتين كانتا مستقلتين ومنفصلتين وكان لابد من اندماجهما الكامل. وهكذا أنشأ العاهلان فى عام ١٤٨٣ ما يسمى بمحاكم التفتيش لفرض الوحدة الأيديولوجية فى مملكتهما الموحدة، فكانا يخلقان بذلك دولة حديثة ذات سلطة مطلقة وإن كانا يفتقران إلى الموارد اللازمة لإتاحة الحرية الفكرية الكاملة لرعايا تلك الدولة. وقام رجال محاكم التفتيش التابعون

للحكومة بالبحث عن المنشقين وإجبارهم على التخلي عن "الهرطقة" أو البدع، والهرطقة كلمة مشتقة من كلمة يونانية تعني "أن يسير المرء في طريقه الخاص به". ولم تكن محاكم التفتيش الإسبانية محاولة عتيقة من جانب الدولة للحفاظ على عالم باد وانقضى، بل كانت مؤسسة تحديث يستخدمها الملك والملكة لإيجاد الوحدة الوطنية. فهما يعلمان حق العلم أن الدين قد يصبح قوة متفجرة وثورية، وكان الحكام البروتستانت في انجلترا لا يقلون عنهما قسوة في معاملة المنشقين من "الكاثوليك" في انجلترا، الذين كانوا يعتبرون كذلك من أعداء الدولة. وسوف نرى أن هذا اللون من القسر والإرغام كثيراً ما كان جزءاً من عملية التحديث. ولما كان اليهود في إسبانيا هم أهم ضحايا محاكم التفتيش، فسوف نركز في هذا الفصل على رد فعل اليهود على هذه النزعة التحديثية العدوانية، وسوف تتضح مما حدث أساليب استجابة الناس في مناطق العالم الأخرى للتحديث.

كان قيام الإسبان بإعادة فتح الأراضي الإسلامية القديمة في الأندلس بمثابة كارثة لليهود في شبه جزيرة أيبيريا. أما في الدولة الإسلامية فقد كانت الأديان الثلاثة - أي اليهودية والمسيحية والإسلام - تعيش معاً في تناغم نسبي على مدى ما يربو على ستمائة عام، وكان اليهود، بصفة خاصة، يتمتعون بنهضة ثقافية وروحية في إسبانيا، ولم يتعرضوا لما تعرض له اليهود في سائر أوروبا من ألوان الاضطهاد. ولكن الجيوش المسيحية كانت في تقدمها التدريجي عبر شبه الجزيرة، غازية وفاتحة للمزيد من أراضي المسلمين، تحمل معها العداء للسامية. ففي عامي ١٣٧٨ و ١٣٩١ تعرضت الجاليات اليهودية في كل من أراغون وقشتالة للعدوان على أيدي المسيحيين الذين كانوا يجرون اليهود جراً إلى مياه التعميد ويرغمونهم على اعتناق النصرانية وإلا كان الهلاك عقابهم. وفي أراغون، كانت المواعظ التي يلقيها الكاهن الدومينيكاني فنسنت فيرير (١٣٥٠ - ١٤١٩) تؤدي بانتظام إلى اندلاع أعمال الشغب المعادية للسامية، كما كان فيرير يقوم بتنظيم مناظرات عامة بين الحاخامات والمسيحيين بقصد التشكيك في الدين اليهودي، وحاول بعض اليهود تفادي الاضطهاد بالتحول إلى اعتناق النصرانية طوعاً، وكان يطلق عليهم رسمياً تعبير خاص هو "المتحولون" (conversos) وإن كان المسيحيون ينعتونهم بلفظ "المارانو" (marranos) أي الخنازير، وهو لفظ سباب تعلق به بعض المتحولين

باعتباره سمة من سمات الفخر. وكان الحاخامات يحذرون اليهود من التحول، ولكن "المسيحيين الجدد" - وهو ما أصبح يطلق على كل من اعتنق النصرانية من اليهود - تمكنوا في البداية من تحقيق الثراء والنجاح، فأصبح بعضهم كهانًا ذوى مكانة رفيعة، وتزوج بعضهم من أبناء وبنات أفضل العائلات، وحقق الكثيرون نجاحات مرموقة في التجارة، وإن كان ذلك قد تسبب في إيجاد مشكلات جديدة، إذ كان "المسيحيون القدامى" يستاءون من صعود "المسيحيين اليهود" في مراقي المجتمع الاسباني، فاندلعت أعمال الشغب ما بين عامي ١٤٤٩ و ١٤٧٤ التي تستهدف هؤلاء 'المارانو'، فتعرضوا للقتل أو تدمير ممتلكاتهم أو الطرد من البلدة.

وأفزعت هذه التطورات الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، إذ إن تحوّل اليهود إلى المسيحية لم يؤد إلى توثيق عرى مملكتهم المتحدة بل أدى إلى إحداث انقسامات جديدة، كما أقلق الملكيْن ما بلغهما من أنباء ارتداد بعض "المسيحيين الجدد" إلى دينهم القديم، وعودتهم إلى العيش يهودًا في السر. وقيل إنهم قد شكلوا حركة سرية تهدف إلى اجتذاب المزيد من 'المتحولين' إلى حظيرة اليهودية القديمة. وصدرت التعليمات إلى رجال محاكم التفتيش بالبحث عن هؤلاء اليهود المتخفّين، وكان الظن أنه يمكن التعرف عليهم إذا رفض أحدهم أن يأكل لحم الخنزير أو أن يعمل في يوم السبت. وكان المشتبه فيهم يتعرضون للتعذيب حتى يدلوا باعترافهم بالخيانة والكفر وبالمعلومات عن "دعاة اليهودية" في السر. وكان من نتيجة ذلك أن قتلت محاكم التفتيش في السنوات الاثنتي عشرة الأولى من عملها نحو ١٣٠٠٠ من 'المتحولين'، ولو أن الكثيرين من هؤلاء، سواء منهم من قتل أو سجن أو صودرت أملاكه، كانوا في الحقيقة من الكاثوليك المخلصين الذين كانوا أبرياء كل البراءة من تهمة الدعوة إلى اليهودية، مما جعل الكثيرين من 'المتحولين' يشعرون بالمرارة - بطبيعة الحال - ويتشككون في دينهم الجديد.

عندما فتح فرديناند وإيزابيلا غرناطة في عام ١٤٩٢، كانا يرثان بذلك جالية كبيرة وجديدة من اليهود في تلك المدينة الدولة، وانتهى رأيهما إلى أن زمام الموقف قد أفلت من أيديهما، ولابد من حل نهائي للمشكلة اليهودية، ومن ثم وقع العاهلان مرسوم الطرد. وتمزق شمل اليهود في إسبانيا، إذ تحول نحو ٧٠٠٠٠

إلى اعتناق النصرانية، وظلوا فى البلد ليُبتلوا بمحاكم التفتيش، واتجه الباقون أى نحو ١٣٠٠٠٠٠ يهودى، على نحو ما رأينا، إلى المنفى. وبكى اليهود فى شتى أنحاء العالم ما حدث ليهود إسبانيا باعتباره أكبر كارثة وقعت لهم منذ تدمير المعبد فى القدس فى عام ٧٠ للميلاد، وهو العام الذى أُرغم اليهود فيه على الخروج إلى المنفى فى جاليات متفرقة خارج فلسطين أطلق عليها مجتمعةً تعبير 'الشتات'. ومنذ ذلك الحين وموضوع المنفى من الموضوعات الرئيسية الأليمة فى الحياة اليهودية، فالواقع أن طرد اليهود من إسبانيا فى عام ١٤٩٢ كان ختامًا للقرن الذى شهد حالات الطرد المتعاقبة لليهود من منطقة أوروبية بعد أخرى، إذ شهد ترحيلهم أولاً من فيينا ولينز فى عام ١٤٢١، ومن كولونيا فى عام ١٤٢٤ ومن أوغسبرج فى عام ١٤٣٩، ومن بافاريا فى عام ١٤٤٢، ومن المدن التابعة للتاج فى موراڤيا فى عام ١٤٥٤. ثم طُرد اليهود من بيروجيا فى عام ١٤٨٥، ومن فيشنزا (١٤٨٦) وبارما (١٤٨٨) وميلانو ولوكا (١٤٨٩) وتوسكانيا (١٤٩٤). وانتقل اليهود تدريجيًا إلى الشرق، وشرعوا يقيمون ما ظنوه موقعًا حصينًا لهم فى بولندا. وهكذا أصبح المنفى، فيما يبدو، عنصرًا دائمًا ومحتومًا من عناصر الحياة اليهودية.

كان ذلك، بالتأكيد، ما رسخ فى أذهان اليهود الإسبان الذين لجأوا بعد طردهم إلى ولايات الامبراطورية العثمانية فى شمال إفريقيا وشبه جزيرة البلقان فقد اعتادوا العيش فى المجتمع الإسلامى؛ ومع ذلك فإن فقدان إسبانيا - التى كانوا يسمونها 'سفاراد' - ترك فى وجدانهم جرحًا عميقًا غائرًا، إذ أحس هؤلاء اليهود السفارديين أن خللاً ما أدى إلى زحزحتهم، وزحزحة كل شىء آخر، عن موقعه الصحيح. فالمنفى زحزحة روحية لا مادية فقط، لأن المنفى مكان غير مألوف على الإطلاق، ومن ثم فليس له معنى، فالإنسان إذا اقتُلعت جذوره عنوة وبعنف يحرمه من كل ما كان يرتكن إليه ويأنس إليه فى العادة، ويمزق عالمه، وينتزعه من الأماكن المشبعة بالذكريات ذات الأهمية الحيوية لهويته، ويلقى به إلى الأبد فى بيئة غريبة عنه، فقد يشعر أن وجوده نفسه أصبح فى خطر. فإذا اقترن المنفى أيضًا بالقسوة الإنسانية، فقد يطرح أسئلة ملحة حول مشكلة الشر فى العالم الذى خلقه الله العادل ذو الخير العميم.

كان ما شهده اليهود السفارديون يمثل شكلاً صارخًا من أشكال اقتلاع الجذور والنزوح التى تعرضت لها بعض الشعوب الأخرى التى وقعت فى وقت لاحق بين فكىّ عملية تحديث عدوانية. وسوف نرى أن الحضارة الغربية الحديثة كانت كلما ضربت جذورها فى بيئة أجنبية، أدت إلى تحولات ثقافية عميقة إلى الحد الذى جعل الكثيرين يشعرون بالاغتراب والتيه. لقد زال العالم القديم، ولكن غرابة العالم الجديد فى أعين الناس جعلتهم لا يستطيعون الاطمئنان إلى بيئتهم التى كانوا يألفونها يوما ما، ومن ثم لا يجدون لحياتهم أى معنى، بل أصبح الكثيرون يعتقدون أن وجودهم نفسه معرض للخطر، كما كان الحال مع السفارديين، إذ كانوا يخافون الفناء والانقراض، وفى غمار الحيرة والآلام يفعل الكثيرون ما فعله بعض الأسبان المنفيين، أى اللجوء إلى الدين. ولكن التغيير الكامل الذى أصاب حياتهم أرغمهم على محاولة التوصل إلى أشكال جديدة للعقيدة، حتى تستطيع التقاليد القديمة أن تخاطبهم باللغة الملائمة للظروف التى اختلفت من حولهم اختلافًا جذريًا.

ولكن ذلك استغرق وقتًا طويلاً، والواقع أن اليهود المنفيين فى أوائل القرن السادس عشر اكتشفوا أن الديانة اليهودية التقليدية لم تنفعهم بشىء، وكانت الكارثة، فيما يبدو، غير مسبوقة، فأشكال الدين القديمة لم تعد ناجحة، مما جعل البعض يتجه إلى "المشيحانية"(*) ومعناها الإيمان 'بماشيح' أو 'مسيح' – أى ملك لآل داود 'مُسح' على رأسه بالزيت القدسى – وهو الذى كان اليهود ينتظرون

(*) "الماشيح" و"المشيحانية" Messiah and Messianism "ماشيح" كلمة عبرية تعنى "المسيح المخلص"، ومنها "مشيحيوت" أى "المشيحانية" وهى الاعتقاد بمجىء "الماشيح". والكلمة مشتقة من الفعل العبرى "مشح" أى "مسح" بالزيت المقدس. وكان اليهود، على عادة الشعوب القديمة، يمسحون رأس الملك والكاهن بالزيت قبل تنصيبهما، دلالةً على المكانة الخاصة الجديدة وعلى أن الروح الإلهية أصبحت تسرى فيهما، حسب الاعتقادات السائدة آنذاك. وقد اتسع مدلول الكلمة فيما بعد، فأصبحت تعنى "المخلّص"، والذى يُعتقد أنه شخص خلقه الإله قبل الدهر ويبقيه فى السماء حتى يحين موعد إرساله إلى الأرض لتخليصها من الشرور. وترى العقيدة المشيحانية اليهودية أن ذلك المخلّص هو من نسل داود، وأنه سيأتى بعد ظهور النبى إيليا ليعدّل مسار التاريخ وينهى عذاب اليهود وشتاتهم، ويعود بهم إلى أرض صهيون (فلسطين)، ثم يبدأ الفردوس الأرضى الذى يدوم ألف سنة.
المسيرى، الموسوعة، م ٥ ص ٢٩٤.

ظهوره على امتداد قرون طويلة، حتى يعيدهم إلى أرض الميعاد، ويضع حدا لوجودهم في المنفى. وكانت بعض التقاليد اليهودية قد أشارت إلى فترة من المكابدة والمعاناة تسبق مباشرة ظهور الماشيح. وهكذا خطر لبعض السفارديين المنفيين الذين لجأوا إلى بلدان شبه جزيرة البلقان أن ما وقع لهم هم والكثيرين من زملائهم اليهود في أوروبا من معاناة واضطهاد في أوروبا ليس له سوى معنى واحد، فتصوروا أن تلك الفترة لابد أن تكون فترة المكابدة التي تنبأ بها الأنبياء والحكماء، وأطلقوا عليها اسم "آلام مخاض الماشيح"، إذ إن هذا العذاب سوف يأتي بالخلاص وبحياة جديدة. ولا شك أن بعض الشعوب الأخرى التي أحست بأن مقدم الحداثة قد دمر عالمها سوف تنزع هي الأخرى إلى احتضان آمال الخلاص والهناء المقيم. ولكن "المشيحانية" لها مشكلاتها، فالواقع هو أن كل حركة مشيحانية تتعلق آمالها بالظهور الوشيك للمخلّص تمنى بالفشل وتنتهي في كل مرة بخيبة الأمل. ونجح اليهود السفارديون في تجنب هذه المعضلة بالعثور على حل أقرب للقبول - إذ وضعوا أسطورة جديدة.

كانت مجموعة من السفارديين قد انتقلت من البلقان إلى فلسطين واستقرت في صفد بمنطقة الجليل. وكانت إحدى التقاليد تقول إن الماشيح (عندما يأتي) سوف يكشف عن نفسه في الجليل، وكان المنفيون من أسبانيا يريدون أن يكونوا أول المرحبين به. واعتقد بعضهم أنه قد اهتدى إليه في شخص يهوديّ أشكنازيّ(*) هزيل نحيل، تبدو عليه مخايل القداسة، يدعى إسحاق لوريا (١٥٣٤ - ١٥٧٢) كان قد استقر في صفد، وكان ذلك الرجل هو أول من وضع الصيغة المفصلة للأسطورة الجديدة وكان بذلك يرسي شكلا من أشكال "القبالاه" ما زال يحمل اسمه. ونقول نحن المحْدثين إن لوريا هو الذي خلق تلك الأسطورة وإنه كان قادراً على الاستجابة الكاملة إلى الرغبات والمخاوف الدفينة الكامنة في اللاوعي لدى أبناء جلدته إلى الحد الذي مكّنه من وضع قصة خيالية تنم عن طاقة إبداعية

(*) نسبة إلى الكلمة العبرية 'أشكيناز' التي تعني ألمانيا، ومن ثم فهي تشير إلى من كانوا يقيمون في منطقة نهر الراين، ويتحدثون لغة هي خليط من الألمانية والعبرية تسمى اليديشية Yiddish وأصبحت تشير إلى اليهود الغربيين في مقابل السفارديين الذين يعتبرون شرقيين، وإن كانوا قد نزحوا أصلاً من أسبانيا، كما جاء في المتن.

فاستطاعت أن تحمل السلوان والأمل لا إلى المنفيين في صفد فحسب، بل إلى اليهود في شتى أرجاء المعمورة. ولكننا نقول ذلك لأن تفكيرنا عقلاني في المقام الأول ويصعب علينا إدراك صورة العالم الأسطورية في الفترة السابقة للحداثة. أما تلاميذ لوريا فلم يكونوا يرون أنه قد "اخترع" أسطورة الخلق التي جاء بها، ولكنهم كانوا يرون أن الأسطورة قد تنزّلت عليه أو كشفت له عن نفسها من تلقاء نفسها. وكل من لا تربطه علاقة وثيقة بطقوس "القبالاه اللّورية" وممارساتها يدهش ويعجب من غرابة قصة الخلق المشار إليها، فهي لا تشبه مطلقًا قصة الخلق الواردة في سفر التكوين، ومع ذلك فقد كان للأسطورة معناها ومغزاها الكامل لممارسي القبالاه في صفد، المنغمسين في الطقوس والتدريبات التأملية التي نصّ عليها لوريا، بل وعلى امتداد جيل كامل بعد ذلك، إذ كانوا لا يزالون يعانون من الدُّوار الذي أحدثته صدمة المنفى، إذ كشفت الأسطورة لهم أو "أماطت اللثام" عن حقيقة كانت واضحة من قبل، ولكن تجاوبها بقوة كبيرة مع أحوال اليهود في مطلع العصر الحديث هيّأ لها الصدق والتصديق على الفور، بعد أن أضاءت ظلمات عالمهم، وجعلتهم يشعرون أن الحياة أصبحت محتملة، بل أصبحت في الواقع مصدر فرح وسرور أيضًا.

وحين يواجه الفرد في العصر الحديث أسطورة الخلق اللورية فسوف يتساءل على الفور "هل حدث ذلك حقا ؟" إن الأحداث تبدو غير محتملة الوقوع ولا يمكن إثباتها، ولذلك فنحن نرفضها باعتبارها أكاذيب واضحة، ولكن السبب في ذلك هو أننا لا نقبل إلا صورة الحقيقة العقلانية، بعد أن فقدنا القدرة على إدراك احتمال وجود صور أخرى للحقيقة، فلقد نشأت لدينا - مثلا - نظرتنا العلمية إلى التاريخ التي تجعلنا نراه في شكل وقائع فريدة متتابعة في الزمن. ولكن الناس في الفترة السابقة للعالم الحديث لم يكونوا يرون أن أحداث التاريخ فريدة، بل كانوا يعتبرونها أمثلة متكررة للقوانين الأزلية، أي تجليات لحقيقة لا زمنية وثابتة. فمن المحتمل أن يتكرر وقوع إحدى الحوادث التاريخية، لأن جميع الأحداث الأرضية تعبر عن قوانين الوجود الأساسية. فنحن نقرأ في الكتاب المقدس مثلاً أن النهر قد انشق انشقاقًا خارقًا، مرتين على الأقل، ليسمح لبني إسرائيل بالعبور، وكثيرًا ما "يهبط" بنو إسرائيل مصر ثم يقومون برحلة العودة إلى أرض الميعاد. ومن

الموضوعات التى تتكرر أكثر من غيرها فى الكتاب المقدس موضوع المنفى، وقد أصبح هذا الموضوع، بعد الكارثة التى حلت بيهود إسبانيا، يصبغ بألوانه الوجود اليهودى كله – فيما يبدو – ويعبر عن خلل في أساس الوجود نفسه. وتصدت القبّالة اللورية لهذه المشكلة بالعودة إلى البداية، كشأن كل أسطورة، لتفحص موضوع المنفى، الذى كان يبدو فى صورة قانون من تلك القوانين الأزلية، ولتكشف عن مغزاه الكامل.

وتبدأ عملية الخلق فى أسطورة لوريا بالذهاب طوعًا إلى المنفى، إذ تسأل فى مطلعها كيف يوجد العالم إذا كان الإله في كل مكان، والإجابة هى مبدأ "تسيم تسوم"(*) ("التراجع") أى إن الإله المطلق الذى لا حدود له ولا يمكن لأحد أن يصل إليه، وهو الذى يسميه القبّاليون "إين سوف" ("اللانهائى")(**) كان عليه أن ينكمش في ذاته، كأنما ليخلي بذلك مكانًا داخل ذاته، إن صح هذا التعبير، فيتيح بذلك الحيز اللازم لوجود العالم. وهكذا تقول الأسطورة إن الخلق قد بدأ بخطوة تنم عن قسوة ربانية، إذ إن "إين سوف" تدفعه الرغبة الرحيمة فى إطلاع مخلوقاته على وجوده فى ذواتهم إلى إلقاء جزء من ذاته فى المنفى. وهكذا، فخلافًا لعملية الخلق السلمية المنتظمة التى يصفها الأصحاح الأول من سفر التكوين، نجد أن هذه العملية قد اتسمت بالعنف، وبالانفجارات الأولى، والكوارث، والبدايات المجهضة، وهى ما كان اليهود السفارديون يرون فيه تقويمًا أكثر دقة للعالم الذى يعيشون فيه. ففى المراحل الأولى من العملية التى يصفها لوريا، حاول 'إين سوف'

(*) "تسيم تسوم" Tsimtsum كلمة عبرية وردت فى كتب التفسير اليهودية (المدراش)، وتشير إلى عملية انكماش الخالق حتى يدخل قدس الأقداس فى الهيكل، حسب المنظور اليهودى. ولكن إسحق لوريا استخدم الكلمة بطريقة مغايرة لتدل على العملية التي ينكمش الخالق خلالها إلى نقطة داخل نفسه، وفق تصور لوريا، وهو انكماش ينتج عنه تركُّز، ثم تصدر عنه التجليات النورانية العشرة بعد ذلك.

المسيرى، الموسوعة، م ٥ ص ١٨٦.

(**) "الإين سوف" Ein Sof كلمة عبرية تعنى "اللانهائى" أو "اللامحدود"، وهى صفات يطلقها أنصار النزعة الصوفية اليهودية (القباليون) على الإله، قائلين إنه وُجد أو أوجد نفسه، على مراحل زمنية متعاقبة من خلال عملية صيرورة مركبة، حيث تحول اللاشىء الإلهى إلى الكيان الإلهى. ولكن الكلمة تعنى أيضًا "اللاشىء" أو "العدم" أو "التخفى"، ولهذا يطلق "القباليون" على الإله أحيانًا اسم "الإله الخفى".

المسيرى، الموسوعة، م ٥ ص ١٧١.

أن يملأ الفراغ الذى كان أنشأه نتيجة عملية الانكماش "تسيم تسوم" بالنور القدسى ولكن "الأوعية" أو "الأنابيب" التى كان من المفروض أن تنقل هذا النور تحطمت بسبب قوة الضغط فيها، وتطاير الشرار من النور القدسى فسقط فى الهوّة التى ضمت كل ما لا ينتمى إلى الإله. وبعد عملية "تحطم الأوعية" عاد بعض الشرار إلى الإله، وظل بعضه الآخر حبيسًا فى تلك المنطقة غير الإلهية، وهى التى ملأها 'إين سوف' بكل إمكانيات الشر التى طهّر ذاته منها فى عملية الانكماش "تسيم تسوم"، وبعد هذه الكارثة أصبح الخلق مُعوّجًا، ولم يكن كل شىء فى مكانه الصحيح، وعندما خلق آدم كان بإمكانه تصحيح الأوضاع، ولو أنه فعل ذلك لانتهى المنفى الربانى فى أول عطلة من عطلات السبت، ولكن آدم اقترف الخطيئة، ومنذ تلك اللحظة والشرر القدسى حبيس فى الأشياء المادية، وأصبحت "السكينة" - وهو المصطلح الذى يشير إلى أقرب صور الوجود الإلهى التى يستطيع الإنسان إدراكها على الأرض - تطوف بين بقاع الأرض وقد كتب عليها أن تعيش فى منفى أبدىّ، متعطشة للعودة والالتحام مع الإله.

إنها لقصة خيالية، ولكنك إن سألت "القبالين" فى صفد إن كانوا يصدقون أن ذلك قد وقع بالفعل لقالوا إن السؤال فى غير موضعه، فالحادثة الأولية القديمة التى تتحدث عنها الأسطورة ليست مجرد حادثة وقعت ذات يوم فى الماضى السحيق، بل هى أيضًا واقعة تحدث فى كل آن، وليس لدينا من المفاهيم أو الألفاظ ما ينطبق بدقة على مثل هذه الحادثة لأن مجتمعنا العقلانى ينظر إلى الزمن فى صورة التسلسل والتعاقب وحسب. ولو أن المصلّين فى معبد إليوسيس فى بلاد اليونان القديمة قد سئلوا إن كانوا يستطيعون إثبات أن بلوتو قد تمكّن حقًا من حبس بيرسيفونى فى العالم السفلى وإثبات أن أمها ديميتير قد هامت على وجهها لتنعى فقدان ابنتها، فالأرجح أنهم كانوا سيجدون السؤال مصدر حيرة شديدة، فأنىّ لهم أن يتأكدوا أن بيرسيفونى قد عادت إلى الأرض على نحو ما تروى الأسطورة ؟ قد يقولون إن آية ذلك هو أن الإيقاع الأساسى للحياة الذى كشفت عنه تلك الأسطورة كان يجرى فى الواقع، فالناس تجنى المحاصيل فى الحقول، والبذور المحفوظة فى المخازن تحت الأرض تُبذر فى المواعيد الدقيقة، والقمح ينمو أخيرًا. فالأسطورة وظاهرة الحصاد يشيران إلى شىء أساسى وعالمى فى هذه الدنيا، على

نحو ما تشير الكلمات المرادفة للقارب أو السفينة - بالانجليزية والفرنسية - إلى واقع خارجي ومستقل عن أى من تلك الكلمات، والأرجح أن اليهود السفارديين كانوا سيجيبون إجابة مماثلة، فالمنفى قانون من قوانين الوجود الأساسية، وحيثما يمت وجهك شاهدت يهوداً اجتُثَّتْ جذورهم فعاشوا غرباء، بل لقد مر غير اليهود بمشاعر الفقدان والضياع وخيبة الأمل والإحساس بأنهم لن يتمتعوا حقًا بالانتماء الكامل لهذا العالم، على نحو ما تشهد به القصص العالمية عن طرد البشر الأوائل من الفردوس الأولى القديمة. ولقد كانت قصة الخلق المعقدة التى وضعها لوريا تميط اللثام عن ذلك كله وتوضحه بأسلوب جديد كل الجدة، إذ لم يكن المنفى الذى كتب على "السكينة" أن تكابده، والمنفى الذى كتب عليهم أن يعيشوا فيه، نازحين أبداً، ظاهرتين منفصلتين بل هما شيء واحد، وكانت أسطورة زِمْزُم دليلاً على أن المنفى مكتوب فى أساس الوجود نفسه.

لم يكن لوريا كاتبًا، ولم تكن التعاليم التى أتى بها إبان حياته معروفة إلا لعدد محدود من الناس ولكن تلاميذه سجلوها للأجيال اللاحقة، وقام غيرهم بنشرها فى أوروبا. وبحلول عام ١٦٥٠ أصبحت "القبالاه اللورية" حركة جماهيرية، بل غدت المذهب اللاهوتى الوحيد الذى ظفر بمثل ذلك القبول الشامل بين اليهود فى ذلك الوقت. ولم يكن السبب هو إمكان إثبات صحتها عقلانيًا أو علميًا، فالواقع أن ذلك محال، وهى تتناقض بوضوح وجلاء مع سفر التكوين فى جميع التفاصيل تقريبًا، ولكن القراءة الحرفية للكتب المقدسة، على نحو ما سوف نرى، ظاهرة حديثة، وقد شغل الناس بها بسبب غلبة الوعى العقلانى على الوعى الروحى، فكان اليهود والمسيحيون والمسلمون يستمتعون جميعًا، قبل العصر الحديث، بالتفسيرات الرمزية والاستعارية و'الباطنية' لنصوصهم المقدسة، فكلام الله لا حدود له وهو قادر على الإيحاء بمعانٍ كثيرة. وهكذا لم يحزن اليهود، على نحو ما قد يحزن الكثيرون من المتدينين المحدثين، لخروج لوريا عن المعنى الصريح للكتاب المقدس. وكانت الأسطورة التى وضعها تخاطبهم بثقة وقوة لأنها تشرح لهم حياتهم وتقدم لهم المعنى والمغزى، فلم يعودوا يشعرون أنهم شعب مُهَمَّش، وأن العالم الحديث الذى بدأ يتجسد قد نبذهم، بل كانوا يستشعرون من خلال هذه الأسطورة أن ما يمرّون به متناغم مع أولى قوانين الوجود الأساسية، فالأسطورة

تقول إن الإله نفسه كابد تجربة المنفى، وإن كل شيء في الخلق زُحزح عن مكانه ونزح عنه من اللحظة الأولى، فالشرر المقدس محبوس في المادة، والخير مرغم على الصراع مع الشر، وتلك من حقائق الحياة القائمة في كل مكان. بل إنهم رأوا في الأسطورة ما يقول بأن اليهود ليسوا من المنبوذين أو المرفوضين بل من العاملين الرئيسيين في قضية نشدان الغفران وتحقيقه. أي إن هذا المنفى العالمي يمكن أن ينتهي عن طريق الالتزام الدقيق بأوامر التوراة ونواهيها، وبالشريعة الموسوية، وبالطقوس الخاصة التي وضعت في صفد، وهكذا يستطيع اليهود "إعادة" (ترجمة لفظة "تيقون"(*) العبرية) السكينة إلى الإله، والشعب اليهودي إلى أرض الميعاد، وبقية العالم إلى حالته الصحيحة.

ولم تفقد هذه الأسطورة أهميتها لليهود أبدًا، فرأى بعضهم أنه لم يعد قادرًا بعد مأساة المحرقة النازية على رؤية الإله إلا في صورة الرب الذي يتعرض للمعاناة، ويتسم بالعجز المتمثل في عملية الانكماش "تسيم تسوم"، والذي لا يستطيع التحكم في الخلق.

ولا تزال الصور الشعرية الخاصة بالشرر المقدس الحبيس في المادة، ومهمة البعث الخاصة بإصلاح الخلل الكوني "تيقون"، مصدر إلهام للحركات اليهودية الحديثة والأصولية. كانت "القبالاه اللّورية"، شأنها في ذلك شأن كل أسطورة أصيلة، لونًا من التجليات التي بيّنت لليهود أسس حياتهم ومعناها، فكانت الأسطورة تحمل في باطنها أسس صدقها، وكانت على أحد المستويات العميقة تعتبر بديهية، بمعنى أنها لم تكن تستند إلى دليل عقلاني بل ولم تكن في حاجة إليه. ونحن قد نصف اليوم "الأسطورة اللورية" بأنها رمز أو استعارة، ولكننا حتى حين نفعل ذلك نكون قد أخضعناها للمنهج العقلاني، فكلمة الرمز في اللغات الأوربية مشتقة من كلمة يونانية تعني إقامة رابطة بين شيئين بحيث يصبح من المحال

(*) "تيقون" Tikkun كلمة عبرية تعني "الإصلاح" أو "إعادة الشيء إلى وضعه الصحيح". وتشير الكلمة في منظور لوريا إلى عملية إصلاح الخلل الكوني، التي تتحقق بعد تخليص الشرارات الإلهية المبعثرة عقب انكماش الإله وعقب تهشم الأوعية، والهدف منها هو أن يصل الإله إلى وحدته ويعم الخلاص العالم، وهي عملية كونية تاريخية يشارك فيها الجنس البشري بأسره، ولكنها تعتمد على اليهود في المقام الأول.
المسيري، الموسوعة، م ٥ ص ١٨٦.

فصل أحدهما عن الآخر، ولكن الناس في الغرب، عندما يقولون إن أحد الطقوس أو إحدى الأيقونات "لا تزيد عن كونها رمزاً من الرموز"، يفصحون في الواقع عن الوعي الحديث الذي يصر على الفصل بين الشيئين.

كان المنطق الروحي في الديانات القديمة لا ينفصل عن العقيدة، فهو يُدخل الحقيقة الخالدة في الحياة الدنيوية للعابدين من خلال الشعائر والممارسات التأملية، وعلى الرغم من قوة رموز "القبالاه اللورية" فإنها لم تكن تستطيع أن تكتسب تلك الأهمية الحيوية للحياة اليهودية لو لم يكن التعبير عنها قد اتخذ شكل الطقوس البليغة القادرة على أن تثير في نفوس المقيمين في المنفى الوعي بالمعنى الذي يتعالى على الدنيا ويتجاوزها، وكان "القبّاليون" في صفد قد ابتدعوا طقوساً خاصة لإعادة تجسيد المبادئ اللاهوتية التي وضعها لوريا، كان من بينها سهر الليل كله حتى تتحد نفوسهم مع "السكينة" التي تخيلوا أنها امرأة تطوف العالم بأحزانها وهمومها وهي تتحرق شوقًا إلى العودة إلى نبعها القدسي. وقد يصحو اليهود في منتصف الليل، فيخلعون أحذيتهم، ويبكون، ويمسحون أوجههم في التراب، وهي الطقوس التي تعبر عن أحزانهم الخاصة بالثكل والنبذ وتربطهم بالفقدان الذي تعرض له الوجود الإلهي نفسه. وقد يظلون يقظين طول الليل، يناجون الإله مثل العشاق، ويبكون ألم الفراق الذي يكمن في صلب الكثير من أحزان البشر، ولكنه يعتبر عماد المكابدة في المنفى. وكانت هناك كفّارات خاصة - كالصوم والجلد والتدحرج في الثلج - تدخل في نطاق طقوس الإصلاح (تيقون) وقد يقوم 'القبّاليون' بالسير مسافات طويلة في الريف، فيتجولون مثل "السكينة"، كأنما يمثلون عمليًا إحساسهم بالتشرد. وتؤكد الشريعة اليهودية أن أعمق قوة وأعمق معنى للصلاة لا يتحقق إلا في صلاة الجماعة، وبحيث لا يقل العدد عن عشرة من الذكور، ولكن التعليمات الصادرة في صفد كانت تقضي بصلاة الفرد وحده، وكان الهدف هو إذكاء الإحساس الكامل بمعنى العزلة، ومعنى الضعف في العالم. إذ كانت الصلاة الفردية تقيم مسافة بين اليهودي وبقية المجتمع، وكانت تهيئه لنوع مختلف من الخبرات، وتساعده على أن يقدر من جديد مدى خطورة عزلة اليهود في عالم يُهدد وجودهم باستمرار.

ولكن لوريا كان يؤكد بإصرار ضرورة عدم استمراء الأحزان، وضرورة بذل القبّاليين جهوداً منتظمة ومنسقة حتى يفوزوا بقدر ما من السرور، فكانت طقوس منتصف الليل تنتهي دائماً في الفجر بتأمل عودة السكينة إلى الاندماج مع "إين سوف"، ومن ثم انتهاء انفصال البشرية عن الألوهية. وكان المطلوب من كل "قبّاليّ" أن يتخيل أن كل عضو من أعضاء جسده بيت أرضي للوجود الإلهي. وتؤكد جميع الأديان في العالم أن الحياة الروحية لن تكون صحيحة إلا إذا أدت إلى التراحم الفعلي، وكانت "القبالاه اللورية" تدعو تلك الدعوة أيضاً، فكانت تنص على كفّارات بالغة الشدة للأخطاء التي تضر بالغير، مثل الاستغلال الجنسي، والغيبة والنميمة، وإهانة الآخرين والغمز واللمز، وعدم البرّ بالوالدين.

وأخيراً، عُلّم "القبّاليون" تلك الممارسات الصوفية التي نشأت في معظم أديان العالم، وهي التي تساعد المتمكّن على النفاذ إلى أعمق مستويات النفس البشرية واكتساب النظرات الحدسية. وكان التأمل الصوفي في صفد يتركز في إعادة تشكيل الحروف التي تكون اسم الإله بصورة تفصيلية وبمهارة في لحظات تركيز تسمى "قُوَانوت" من شأنها مساعدة القبّالي على الوعي بوجود آثار القداسة في ذاته، وكان كبار القبّاليين يعتقدون أنه يمكن أن يصبح بذلك نبياً قادراً على النطق بأسطورة جديدة، والإتيان بحقيقة دينية ظلت مجهولة دهراً أو الكشف عنها، على نحو ما فعل لوريا. وكانت لحظات "القُوَانوت" لا شك مصدر فرح وسرور كبير للقبّاليين، إذ قال حاييم ڤيتال (١٥٤٢ - ١٦٢٠) الذي كان من تلاميذ لوريا، إنه كان ينتشي بها فيضطرب ويهتز طرباً ورهبة، وكان القبّاليون يرون الرؤى ويستشعرون نشوات التعالي التي تغير من شكل العالم في الوقت الذي كان يبدو فيه قاسياً وغريباً.

لقد نجح الفكر العقلاني نجاحاً مدهشاً في المجالات العملية، ولكنه لا يستطيع التخفيف من أحزاننا. واكتشف القبّاليون في أعقاب الكارثة التي حلت باليهود في إسبانيا أن المذاهب الفلسفية العقلانية التي شاعت بين اليهود في الأندلس، لا تستطيع التصدي لآلامهم. وبدا لهم أن الحياة قد تعرضت لتزييف سلبها معناها، فإذا لم يجد البشر لحياتهم معنى، فما أيسر أن يسقطوا في هوة اليأس. وكان

المنفيون يسعون إلى أن تصبح الحياة محتملة، فلجأوا إلى المنطق الروحي وإلى التصوف، مما مكّنهم من إقامة الصلات مع منابع إحساسهم بالألم وبالفقدان ومنابع رغباتهم الكامنة في اللاوعي، حتى رست سفينة حياتهم على شط تلك الرؤيا التي حققت لهم الراحة النفسية.

ولكننا نلاحظ أن لوريا وتلاميذه كانوا يختلفون عن إغناطيوس اللُّيولي في أنهم لم يبتكروا ولم يضعوا خططًا عملية لإنقاذ اليهود سياسيًا، وإذا كان القبّاليون قد استقروا في أرض إسرائيل فإنهم لم يكونوا صهيونيين، ولم يكن لوريا يحث اليهود على وضع حد للحياة في المنفى بالهجرة إلى الأرض المقدسة. ولم يستخدم أسطورته ولا رؤياه الصوفية في خلق أيديولوجية تصبح مشروعًا للعمل. ولم تكن تلك هي المهمة المنوطة بالمنطق الروحي، بل إن مثل ذلك التخطيط العملي والنشاط السياسي كان ينتمي إلى مجال "اللوغوس" أي المنطق العقلاني والتحليلي. وكان لوريا يعلم أن مهمته باعتباره متصوفًا هي إنقاذ اليهود من اليأس الوجودي والروحي. وعندما بدأ تطبيق هذه الأساطير فيما بعد على عالم السياسة العملية، فإن النتائج قد تكون فاجعة، على نحو ما سنرى بعد قليل من هذا الفصل.

لن يكون للمنطق الروحي والمذاهب العقائدية معنى دون العبادات والصلوات والطقوس، ولولا الشعائر والاحتفالات الخاصة التي قربت الأسطورة إلى نفوس القباليين وأذهانهم، لظلت قصة الخلق التي أتى بها لوريا قصة خيالية لا معنى لها. فالعقيدة الدينية، مهما تكن، لا تكتسب معناها إلا في سياق الشعائر، فإذا حرمت الناس من ذلك اللون الخاص من ألوان النشاط فسوف يفقدون إيمانهم، وذلك هو ما حدث لبعض اليهود الذين قرروا التحول إلى المسيحية والبقاء في شبه جزيرة أيبيريا، كما حدث ذلك أيضًا للكثيرين من المحدثين الذين ينقطعون عن التأمل أو أداء الشعائر أو المشاركة في أية عبادات احتفالية، فيكتشفون أن المنطق الروحي للدين قد فقد معناه تمامًا. ولقد تمكن الكثيرون من 'المتحولين' إلى الكاثوليكية من اعتناقها اعتناقًا كاملاً، بل إن عددًا منهم مثل المصلحيْن خوان دي فالديس (١٥٠٠ - ١٥٤١) وخوان لويس فيفيس (١٤٩٢ - ١٥٤٠)، أصبحوا

من كبار زعماء حركة الإصلاح المضاد، ومن ثم أسهموا إسهامًا كبيرًا في مطلع الثقافة الحديثة، بنفس الأسلوب الذي اتسم به التأثير العميق للعلمانيين من اليهود في المراحل المتأخرة من الحداثة، مثل كارل ماركس، وسيجموند فرويد، وإميل دوركايم، وألبرت أينشتاين، ولودفيج ڤتجنشتاين بعد أن اندمجوا اندماجًا كاملاً في التيار الرئيسي للمجتمع.

وكان من أشهر هؤلاء المتحولين الذين كان لهم نفوذهم وتأثيرهم المرموق امرأة تدعى تيريزا الأفيلية (١٥١٥ - ١٥٨٢) التي تولت تعليم وتوجيه القديس يوحنا الصليب والتي كانت أول امرأة تحصل على درجة الدكتوراه الكنسية، وكانت تيريزا رائدة الإصلاح الروحي في إسبانيا، وكانت تشغلها قضية المرأة بصفة خاصة، فعملت على توفير التعليم الديني الأساسي لها، بعد أن لاحظت حرمان النساء بصفة عامة من فرصة تلقي التعليم الراقي، ورأت كيف يمارسن في حالات كثيرة أشكالاً غير صحية من التصوف، بسبب المرشدين الروحيين غير المتمكنين من فنهم، وكانت تؤكد أن حالات الغيبوبة الهستيرية، والرؤى والنشوات الملتهبة لا علاقة لها بالقداسة، بل إن التصوف يتطلب مهارة فائقة، والقدرة على التركيز المنتظم، والشخصية المتوازنة، والطبع البشوش المتعقل، ويجب أن يصبح جزءًا لا يتجزأ من الحياة العادية وذلك بأسلوب يتسم بالتحكم في النفس واليقظة والتنبّه لكل شيء. وكانت تيريزا مثل القديس يوحنا الصليب، من دعاة التحديث والمتصوفة ذوي العبقرية، ولكنها لم تكن لتستطيع تنمية تلك الموهبة لو أنها لم تهجر اليهودية، إذ لا يسمح إلا للرجّال بمزاولة "القبّالة". ومع ذلك فمن الطريف أن طابعها الروحاني ظل يهوديًا، فهي ترصد في القلعة الباطنة معراج الروح خلال سبع قاعات سماوية حتى تصل إلى الله، وهو شكل يحمل بصمات شبه واضحة بالتصوف العرشي الذي انتشر في العالم اليهودي منذ القرن الأول وحتى القرن الثاني عشر للميلاد. لقد كانت تيريزا كاثوليكية مؤمنة ومخلصة، ولكنها ظلت تصلي صلاة اليهود وتعلّم راهباتها أن يفعلن ذلك.

كان الامتزاج بين اليهودية والمسيحية في حالة تيريزا امتزاجًا مثمرًا، ولكن بعض "المتحولين" الآخرين لم يكونوا يتمتعون بموهبتها وتعرضوا للصراع الداخلي،

وكان من بينهم توماس دى توركويمادا (١٤٢٠ - ١٤٩٨) الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش وقد يكون الحماس الذى وسم محاولته لطمس جميع آثار اليهودية فى اسبانيا دليلاً على محاولة لا شعورية من جانبه لاجتثاث العقيدة القديمة من قلبه، إذ كان معظم 'المارانو' (أى الذين تحولوا طوعًا إلى المسيحية) قد اعتنقوا الدين الجديد كرهًا فى الواقع، وكان الكثيرون منهم لم يستكملوا الانتقال مطلقًا إلى الدين الجديد. ولم يكن فى ذلك ما يدعو للدهشة إذ إنهم كانوا يتعرضون بعد تعميدهم للرقابة الوثيقة من جانب محاكم التفتيش، وكانوا يعيشون فى خوف دائم من الاعتقال لأوهى الأسباب والتهم. فمن يوقد الشموع فى مساء يوم الجمعة أو يرفض أكل الخار قد يعرض نفسه للسجن أو التعذيب أو القتل أو - على الأقل - لمصادرة ممتلكاته، مما أدى إلى نبذ البعض للدين برمته، فلم يكونوا قادرين على اعتناق الكاثوليكية حقًا بعد أن أحالت حياتهم إلى شقاء مقيم، كما تحولت اليهودية على مر السنين إلى ذكريات بعد بها العهد فانفصلت عن الواقع. فالذى حدث بعد الطرد الأعظم فى عام ١٤٩٢ هو أن اسبانيا خلت من اليهود الذين يمارسون شعائر دينهم، وهكذا فلو أن "المارانو" أرادوا أن يمارسوا طقوس عقيدتهم سرا لما وجدوا سبيلاً إلى معرفة الشريعة اليهودية أو أساليب ممارسة الشعائر. ومن ثم فلم يعودوا يكنون الولاء لأى دين، وهكذا نستطيع أن نجد نماذج للعلمانية وللإلحاد واللامبالاة الدينية وهى المواقف التى تعتبر حديثة فى جوهرها، بين المارانو من يهود شبه قارة أيبيريا، قبل أن تشيع فى سائر قارة أوروبا.

ويقول الباحث الإسرائيلى يرمياهو يوفل إن التشكك فى الدين، مهما يكن ذلك الدين، قد شاع بين 'المتحولين'. بل لقد اتجه بعضهم، حتى قبل الطرد الأعظم عام ١٤٩٢، إلى الانشغال الكامل بالسياسة والفن والأدب وعدم الاهتمام، فيما يبدو، بالدين على الإطلاق، على نحو ما فعل بيدرو وفرناندو دى لا كابالييريا، اللذان كانا من أفراد أسرة إسبانية كبيرة، بل إن بيدرو المذكور كان يسخر علنًا ممن يتهمه بأنه مسيحى كاذب، وكان يزعم أن ذلك يتيح له الحرية فى أن يفعل ما يحلو له دون اكتراث بالنظم واللوائح المقدسة. وحدث قبيل عام ١٤٩٢ أن أحيل شخص يدعى ألفارو دى مونتالبان إلى إحدى محاكم التفتيش بتهمة أكل الجبن واللحم أثناء فترة الصوم الكبير، وكان بذلك لا ينتهك الصوم المسيحى فحسب،

بل - ولذلك ما له من دلالة - ينتهك الشريعة اليهودية أيضًا التي تنهى عن الجمع بين أكل اللحم ومنتجات الألبان. وكان من الواضح أنه لا يشعر بالتزام تجاه أي من هذين الدينين. وكان ألفارو حسن الحظ إذ اكتفت المحكمة بفرض غرامة عليه، ولم يكن من المحتمل أن يُكنَّ إعزازًا كبيرًا للكاثوليكية بعد أن نفذت محاكم التفتيش حكم الإعدام في والديه بتهمة ممارسة اليهودية سرًا، ونبشت جثتيهما، وأحرقت عظامهما، وصادرت أملاكهما. ولم يكن ألفارو قادرًا على الحفاظ على أي علاقة تربطه باليهودية، مهما بلغ من هشاشة تلك العلاقة، فوجد نفسه في برزخ العزلة الدينية، وعندما بلغ السبعين من عمره، نفذت محاكم التفتيش حكمها عليه بالسجن بتهمة الإنكار المتعمد والمتكرر لفكرة الحياة الأخرى. وقد رُوي عنه أنه كان يقول كثيرًا "فلأهنأ وأتمتع بحياة الدنيا، ما دمت غير واثق من وجود شيء آخر بعدها".

وكانت إدانة ألفارو تعني أن زوج ابنته، واسمه فرناندو دي روخاس (١٤٦٥ - ١٥٤١) - وهو مؤلف مسرحية تراجيكوميدية عنوانها لاسلتينا - أصبح أيضًا مشتبهًا فيه، مما دفعه إلى أن يقيم واجهة من المسيحية المحترمة ويحافظ عليها بعناية، وإن كنا لا نجد في المسرحية المذكورة، التي نشرت أول مرة عام ١٤٩٩، إلا العلمانية القاتمة الجهمة الكامنة تحت مظاهر الإباحية الباذخة، والتي تقول بإنكار وجود الله، وبأن الحب هو القيمة العليا، فإذا مات الحب بدا العالم خرابًا يبابا. وفي آخر المسرحية ينعي بليبيريو وفاة ابنته التي انتحرت، وهي التي كانت وحدها تهب الحياة معناها، وينتهي بمخاطبة العالم قائلاً: "أيتها الدنيا! عندما كنت صغيرًا كنت أتصور أن هناك قانونًا تخضعين له وتخضع له أفعالك"، أما الآن:

فإنك تظهرين لي في صورة تيه من الأخطاء، وصحراء رهيبة، وعرين للوحوش الضارية، ولعبة يدور الناس فيها في حلقات... [ما أنت إلا] حقلٌ من الأحجار، وروضٌ حافلٌ بالأفاعي، وبستانٌ مزهرٌ ولكنه غيرُ مثمر، نبعٌ للهموم، ونهرٌ من الدموع، وبحرٌ من المعاناة، وأملٌ ضائع.

أي إن عجز روخاس عن ممارسة الدين القديم، وعزوفه عن الدين الجديد بسبب قسوة محاكم التفتيش، جعله يسقط في هوة اليأس الذي لا يمكنه أن يؤدي إلى أي

معنى، أو نظام، أو قيمة نهائية مطلقة.

وكان آخر ما يريده فرديناند وإيزابيلا هو تحويل اليهود إلى عازفين عن الدين متشككين فيه، ولكننا سوف نجد على امتداد قصتنا أن الإرغام الذى كانا يتوسلان به قد أتى بنتائج عكسية، فمحاولة إرغام الناس على قبول الأيديولوجية السائدة، سواء كان ذلك ضد إرادتهم أو قبل أن يكونوا مهيئين لتقبلها، كثيراً ما يؤدى إلى ظهور أفكار وممارسات بغيضة إلى أقصى حد، حتى فى عيون السلطات التى تمارس الاضطهاد نفسها. وكان فرديناند وإيزابيلا من دعاة التحديث العدوانى، أولئك الذين يسعون إلى قمع كل منشق، ولكن أساليب محاكم التفتيش التى اتبعاها أدت إلى تشكيل حركة يهودية سرية تعمل فى الخفاء، وإلى نشأة أولى حركات العلمانية والإلحاد الصريحة فى أوروبا. وقد حدث فى وقت لاحق أن شعر بعض الأوربيين بالتقزز والاشمئزاز من هذا النمط من أنماط الطغيان والتسلط الدينى إلى الحد الذى جعلهم يفقدون الإيمان بجميع صور الأديان السماوية المنزّلة. ولكن العلمانية قد تكون مماثلة لذلك فى شراستها وضراوتها، وكان فرض المبادئ العلمانية فى القرن العشرين باسم التقدم عاملاً مهماً فى نشأة الأصولية المناضلة التى أدت فى بعض الأحيان إلى إسقاط الحكومة التى فرضت تلك المبادئ.

وفى عام ١٤٩٢ منح الملك جوانو الثانى، ملك البرتغال، حق اللجوء لنحو ثمانين ألفاً من اليهود الذين رفضوا التحول إلى المسيحية، وسوف نجد بين هؤلاء اليهود البرتغاليين وذريتهم أنصع الأمثلة وأقواها على انتشار الإلحاد، فكان بعضهم قد حاول جاهداً أن يستمسك بعقيدته اليهودية، ولكنه وجد ذلك عسيراً أو محالاً بسبب الافتقار إلى طقوس العبادات اللازمة. والواقع أن اليهود الذين فروا إلى البرتغال فى عام ١٤٩٢ كانوا أصلب عوداً من 'المتحولين' الاسبان، لأنهم فضلوا الترحيل على نبذ عقيدتهم، وعندما جلس الملك مانويل الأول على العرش خلفاً لجوانو، فى عام ١٤٩٥، أرغمه فرديناند وإيزابيلا، والدا زوجته، على أن يأمر بتعميد اليهود فى مملكته قسراً، ولكنه وجد حلاً وسطاً يتمثل فى منحهم الحصانة من التعرض لمحاكم التفتيش على امتداد جيل كامل، وهكذا أتيح 'للمارانو' البرتغاليين ما يقرب من خمسين سنة لتنظيم الحركة السرية التى

استمرت فيها الأقلية المخلصة المتفانية فى ممارسة اليهودية سراً، وفى محاولة إقناع غيرهم بالرجوع إلى الدين القديم.

ولكن هؤلاء المارانو الداعين إلى اليهودية كانوا قد انعزلوا تماماً عن بقية العالم اليهودى، إذ نشأوا فى كنف التعليم الكاثوليكى، وكان مخيلاتهم غاصة بالرموز والمبادئ المسيحية، وكانوا كثيراً ما يفكرون ويتحدثون عن اليهودية بمفردات المسيحية، فكانوا يؤمنون مثلاً بأن "الخلاص" جاءهم عن طريق شريعة موسى لا عن طريق عيسى عليه السلام، وذلك المفهوم لا يكاد يعنى شيئاً فى الدين اليهودى كما كانوا قد نسوا قدراً كبيراً من الشريعة اليهودية، وعلى مَر السنين، استمر انحسار فهمهم لليهودية، وأحياناً ما كانت مصادر معلوماتهم عنها تنحصر فى الكتابات الخلافية التى يكتبها المسيحيون المعادون للسامية، وكان أن انتهوا إلى ممارسة دين هجين لا هو باليهودية الحقة ولا بالمسيحية الحقة. ولم تكن المعضلة هنا تختلف عن معضلة الكثيرين فى البلدان النامية اليوم ممن لا يفهمون الثقافة الغربية إلا فهماً سطحياً، دون أن يستطيعوا الانتماء الحقيقى إلى ثقافتهم التقليدية بسبب التأثير المدمر الذى أحدثته الحداثة بأساليب حياتهم القديمة. وكان "المارانو" من يهود البرتغال يشعرون باغتراب مماثل إذ أرغموا على استيعاب ثقافة محدثة لا تتناغم مع بواطن ذواتهم.

وفى أواخر القرن السادس عشر سمح لبعض اليهود بمغادرة شبه جزيرة أيبيريا وكان بعض "المارانو" يعيشون فى الشتات من قبل، فى بعض المستعمرات الاسبانية، وفى جنوب فرنسا، وإن لم يكن يسمح لليهود هنا بممارسة شعائر دينهم. ولكن "المارانو" الداعين لليهودية تمكنوا من الهجرة إبان القرن السابع عشر إلى بعض المدن الكبرى مثل البندقية وهامبورج، ثم إلى لندن، وكان لهم أن يرتدوا إلى اليهودية علناً. وكان الأهم هو تدفق اللاجئين الهاربين من محاكم التفتيش فى شبه جزيرة أيبيريا إلى أمستردام التى أصبحت فى نظرهم أورشليم الجديدة، وكانت هولندا أشد بلدان أوروبا تسامحاً وسعة أفق، فهى جمهورية، ولها امبراطورية تجارية مزدهرة تمكنت إبان نضالها فى سبيل الاستقلال عن إسبانيا من بلورة هوية متحررة مناقضة لقيم شبه جزيرة أيبيريا. وأصبح اليهود يتمتعون

بجنسية هذه الجمهورية بصورة كاملة فى عام ١٦٥٧ ولم يكونوا محصورين فى أحياء مغلقة على نحو ما كان عليه حالهم فى معظم المدن الأوروبية. ولما كان الهولنديون يقدرون الخبرات التجارية لليهود، فقد تمكن اليهود من أن يصبحوا رجال الأعمال المرموقين الذين يختلطون دونما قيود مع غيرهم. واتسمت حياتهم الاجتماعية بالحيوية والقوة، وأنشأوا نظاماً ممتازاً للتعليم، وازدهرت صناعة الطباعة والنشر لديهم.

ولا شك أن الكثيرين من اليهود جاءوا إلى أمستردام طلباً للفرص الاجتماعية والاقتصادية المتاحة، ولكن عدداً لا يستهان به كان دافعه الحرص على الممارسة الكاملة لليهودية وهو ما لم يكن يسيراً، إذ كان لابد من إعادة تعليم "اليهود الجدد" القادمين من أيبيريا أصول دينهم الذى كانوا يجهلونه إلى حد كبير. وكانت المهمة تمثل لوناً من التحدى للحاخامات الذين كان عليهم أن يرشدوهم إلى دينهم القديم، وأن يتغاضوا عن الصعوبات الحقيقية التى كانوا يواجهونها، دون أن يتجنوا على التراث الدينى القائم. ويذكر لهم أنهم مكّنوا معظم اليهود من اجتياز تلك المرحلة الانتقالية، وعلى الرغم من بعض التوتر الذى شابها فى البداية، فقد اكتشف العائدون أنهم يستمتعون بالعودة إلى دين أسلافهم. وكان من الأمثلة المرموقة شخص يدعى أوروبيو دى كاسترو، الذى كان طبيباً وأستاذاً للميتافيزيقا، وكان قد أقام فى اسبانيا سنوات طويلة يدعو فيها إلى العودة إلى اليهودية سراً، وكانت محاكم التفتيش قد اعتقلته وعذّبته، فارتد عن دينه، وعمل بتدريس الطب فى تولوز متظاهراً بأنه مسيحى، لكنه ما لبث أن سئم الخداع والحياة المزدوجة فوصل إلى أمستردام فى الخمسينيات من القرن السابع عشر، وبات يرفع لواء الانتصار لليهودية ويعلّم غيره من "المارانو" العائدين.

ويصف لنا أوروبيو طبقة كاملة من الذين لم يستطيعوا التكيف بسهولة مع القوانين والعادات المنصوص عليها فى اليهودية التقليدية، والتى كانت تبدو لهم ثقيلة الوطأة ولا معنى لها، بعد أن درسوا العلوم الحديثة فى أيبيريا، مثل المنطق والفيزياء والرياضيات والطب، على نحو ما فعل أوروبيو نفسه، ولكن أوروبيو ضاق صدره بغرورهم قائلاً "إنهم قد مُلئوا صلفاً وغطرسةً وكبراً واثقين أنهم

أحاطوا بالعلم والمعرفة فى كل موضوع".

" وهم يظنون أن مكانتهم العلمية سوف تُنتقص إذا وافقوا على أن يتعلموا من المتبحرين حقًا فى القوانين المقدسة، وهكذا فهم يتظاهرون بأنهم أعلم العلماء عن طريق معارضة ما لا يفهمون".

كان هؤلاء اليهود الذين عاشوا عشرات السنين فى عزلة دينية قد اضطروا إلى الاستناد إلى ملكاتهم العقلانية فحسب، فلم تكن لهم شعائر ولا حياة دينية جماعية، ولا خبرة بالمراعاة الطقسية "للقوانين المقدسة" فى التوراة. وعندما وصلوا آخر الأمر إلى أمستردام، فوجدوا أنهم يعيشون لأول مرة وسط مجتمع يهودى يمارس الطقوس ممارسة كاملة، أصابتهم الحيرة، وهو أمر طبيعى. فالغريب الذى يقرأ وصايا الأسفار الخمسة، والتى يبلغ عددها ٦١٣ بندًا، قد يرى أنها توقيفية أو تعسفية وغامضة. وكان بعضها قد أصبح من النصوص الميتة، لأنها كانت تتعلق بالزراعة القديمة فى الأرض المقدسة أو طقوس المعبد، ولم تعد لها علاقة بالحياة فى الشتات. وكانت بعض الأوامر والنواهى الأخرى، مثل القواعد المعقدة الخاصة بالطعام وقوانين التطهر، تبدو - ولا شك - بدائية أو همجية ولا معنى لها عند "المارانو" البرتغاليين الذين برعوا فى فنون الحياة المدنية الحديثة، والذين وجدوا صعوبة فى تقبل تفسيرات الحاخامات بعد أن اعتادوا التفكير العقلانى والاهتداء به فى كل شىء فى حياتهم الخاصة. وكان ما يسمى "بالهالاخاه"(*) أى مجموعة القوانين الشفاهية التى وضعت فى صورة لائحة رسمية على امتداد القرون الخمسة الأولى مما يسمى بالعصر العام، تبدو أبعد عن العقلانية وأكثر تعسفًا من تلك

(*) "الهالاخاه" Halakhah كلمة عبرية تعنى "التشريع" أو "القانون"، وهى من أصل آرامى ومعناها الحرفى "الطريق القويم". وكانت الكلمة فى بادئ الأمر إلى "الحكم الشفهى الذى يصدره الفقهاء"، ثم اتسع مدلولها فيما بعد وأصبحت تعنى الجانب التشريعى لليهودية بشكل عام، بما فى ذلك الشريعة الشفهية. والملاحظ أن التشريعات المختلفة هى محور الخلاف بين الفرق اليهودية فى العصر الحديث. إذ يرى اليهود المتزمتون أنهم مُكلفون بتنفيذ كل ما جاء فى الشرائع اليهودية وبصياغة حياتهم وفقًا لقواعدها، بينما يذهب الإصلاحيون إلى القول بأن التشريعات مرتبطة بمكان وزمان محددين، وأن قواعدها غير ملزمة. ويرى المحافظون أنهم ينفذون روح التشريعات دون حرفيتها.

المسيرى، الموسوعة، م ٥ ص ص ١٤٥ : ١٤٦.

الوصايا، إذ كانت تفتقر حتى إلى السند الفقهى فى الكتاب المقدس.

ولكن التوراة، أو شريعة موسى عليه السلام ، كان لها منطقها الروحى الخاص بها، وكانت، شأنها فى ذلك شأن "القبالاه"، تمثل استجابة للنزوح الذى أتى به المنفى . فعندما تعرض بنو إسرائيل للترحيل إلى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد، وشهدوا دمار المعبد وأطلال حياتهم الدينية، أصبح نص الشريعة "معبداً" جديداً يقيم فيه النازحون لونًا من الوجود الإلهى. وكان النص على تقسيم العالم إلى ما هو طاهر وما هو نجس، وما هو مقدس وما هو دنيوى، يمثل إعادة تنظيم للعالم الممزق، بصورة إبداعية مبتكرة. وكان اليهود يرون فى دراسة شريعتهم فى المنفى خبرة دينية عميقة، أى أنهم لم يكونوا يقرأون النص مثلما يقرؤه المحدثون، طلبًا للمعلومات فقط، بل كانت عملية الدراسة نفسها - أى طرح الأسئلة والعثور على إجابات لها، والمناقشات الحامية، والاستغراق فى أدق التفصيلات - هى التى تجعلهم يشعرون بالوجود الإلهى. كانوا يرون أن التوراة هى كلمة الإله، وكان الاستغراق العميق فيها، واستظهار الألفاظ التى نطق بها الرب نفسه إلى موسى عليه السلام والتلفظ بها بصوت عالٍ، من وسائل إدخال الوجود الإلهى إلى ذواتهم، وإدخالهم فى نطاق القداسة. أى إن الشريعة أصبحت رمزاً وجدوا فيه "السكينة". وكان تنفيذ الوصايا معناه إدخال الأوامر الإلهية فى أدق تفاصيل حياتهم وهم يأكلون ويغتسلون ويصلون أو يستريحون مع أفراد أسرهم فى عطلة السبت.

ولم يكن المارانو قادرين على أن يدركوا أيا من ذلك كله إدراكًا مباشراً عن طريق المنطق العقلانى الذى استندوا إليه، بالضرورة، طول حياتهم. فلم يكن ذلك اللون من التدين الطقسى والأسطورى مألوفًا أو معروفًا لهم، وكان "أوروبيو" يشكو من أن بعض اليهود الجدد قد أصبحوا "ملحدين إلى درجة يصعب وصفها" ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا ملحدين بالمعنى المعروف للكلمة فى القرن العشرين، إذ كانوا لا يزالون يؤمنون بوجود إله متعالٍ، وإن لم يكن هو نفسه الإله المذكور فى الكتاب المقدس. أى إن المارانو قد وضعوا نوعًا من الإيمان العقلانى الخالص، الذى يشبه الإيمان بالإله دون الأديان، الذى أتى به الفلاسفة الفرنسيون فى عصر التنوير

الأوروبى، والذى يقول إن الإله هو السبب الأول للوجود كله، والذى أثبت أرسطو وجوده بالأدلة المنطقية، وهو يتصرف دائمًا بأسلوب عقلانى تمامًا، وهو لا يتدخل فى التاريخ البشرى بصورة غير منتظمة ولا يكسر قوانين الطبيعة عن طريق الخوارق والمعجزات العجيبة، أو يملى على البشر قوانين غامضة على قمم الجبال. كما كانوا يقولون إنه لم يكن بحاجة إلى أن ينزّل قوانين خاصة، لأن قوانين الطبيعة فى متناول أذهان الجميع. وكانت تلك هى الصورة التى كان العقل البشرى يميل بطبيعة الحال إلى رسمها للإله، وكان بعض فلاسفة اليهودية والإسلام قد رسموا صورة تشترك معها فى ملامح كثيرة فى الواقع، ولكن المؤمنين لم يتقبلوها بقبول حسن فى يوم من الأيام، بصفة عامة، فلم تكن لتلك الصورة فائدة دينية، فهى صورة تشكك فى علاقة ذلك السبب الأول بالبشر أو حتى فى معرفته بوجودهم، لأنها ترسم من لا يمكنه أن يتأمل إلا الكمال، وهى صورة إله لا يخفف آلام البشر أو أحزانهم، فذلك لا يتحقق إلا من خلال الروحانية التى يوفرها منطق الروح وشعائر العبادة مما كان غير مألوف "للمارانو".

وتمكن معظم "المارانو" الذين عادوا إلى الإيمان فى أمستردام من تقدير قيمة الروحانية المستمدة من "الهالاخاه" بدرجات متفاوته، ولو أن بعضهم وجد التحول إليها من باب المستحيل، وكان من بينهم أوريبل دا كوستا، الذى تعتبر حياته من المآسى الفاجعة، إذ ولد لأسرة من "المتحولين" وتلقى تعليمه على أيدى الآباء اليسوعيين ولكنه اكتشف أن المسيحية التى لُقّنها كانت ثقيلة الوطأة، وتتسم بالقسوة، وتتكون برمتها من قواعد ومبادئ من وضع البشر، ولا تمت بأى صلة، فيما يبدو، للأناجيل. وتحول دا كوستا إلى الكتب المقدسة اليهودية ووضع لنفسه مفهومًا خاصًا لليهودية يتميز بدرجة عالية من المثالية وبالعقلانية. وعندما عاد فى أوائل القرن السابع عشر إلى أمستردام هاله ما رأى، أو قل إن ذلك هو ما زعمه، إذ قال إنه صُدم حين اكتشف أن اليهودية المعاصرة كانت مثل الكاثوليكية بناءً بناه البشر بأيديهم.

وقد أثار الباحثون فى الآونة الأخيرة بعض الشكوك فى شهادة دا كوستا وقالوا إنه يكاد يكون من المؤكد أنه سبق له الإطلاع على شكل من الأفكار اليهودية

المستمدة من "الهالاخاه"، مهما تكن سطحية هذا الاطلاع، وإن كان من المحتمل أنه لم يكن يدرك مدى تغلغل "الهالاخاه" وهيمنتها على الحياة اليهودية العادية، ولكنه من المقطوع به أن دا كوستا كان عاجزاً كل العجز عن الانتماء إلى اليهودية فى أمستردام، فكتب مقالاً مطولاً يهاجم فيه القول بالحياة الآخرة والشريعة اليهودية، ويعلن فيه أنه لا يؤمن إلا بالعقل الإنسانى وقوانين الطبيعة. وما لبث الحاخامات أن أعلنوا حرمانه من الرحمة (أى رحمة الكهنوت اليهودى)، فقضى دا كوستا سنوات طويلة فى عزلة وبؤس، حتى انهار آخر الأمر، فأعلن توبته، فسمح له بالعودة إلى المجتمع. والطريف أن دا كوستا لم يكن قد عدّل آراءه فى الواقع، إذ وجد من المحال له أن يعيش وفقًا للطقوس التى لم يجد لها أى معنى عقلانى، وتعرض للحرمان من الرحمة الكهنوتية مرتين بعد ذلك، وانتهى أمره فى عام ١٦٤٠ إلى أن سقط فى هوة اليأس مدحوراً محطمًا فانتحر بإطلاق النار على رأسه.

وتبين مأساة دا كوستا أنه لم يظهر حتى تلك الآونة بديل علمانى عن الحياة الدينية فى أوروبا. فقد يستطيع المرء أن يعبر الجسر إلى عقيدة أخرى، لكنه إن لم يكن إنسانًا فذًا إلى أقصى الحدود (ولم يكن دا كوستا كذلك) فلن يستطيع الحياة خارج المجتمع الدينى. وعلى امتداد السنوات التى كابد فيها الحرمان من الرحمة الكهنوتية، عاش دا كوستا فى عزلة تامة، وكان اليهود والمسيحيون يتجنبونه، ويسخر منه الأطفال فى الطرقات.

وكانت هناك حالة لا تقل فى دلالتها عن حالة "دا كوستا"، وإن كانت أقل منها لذعًا وإيلامًا، وهى حالة "خوان دا برادو"، الذى وصل إلى أمستردام عام ١٦٥٥، ولابد أنه فكر كثيراً فيما حدث "لدا كوستا" والمصير الذى انتهى إليه. وكان "برادو" عضواً ملتزمًا من أعضاء الحركة اليهودية السرية فى البرتغال طيلة عشرين عامًا، ولكنه، فيما يبدو، اعتنق شكلاً ما من أشكال الإيمان العقلانى الذى شاع بين "المارانو" قبل ذلك بسنوات، ولنقل فى عام ١٦٤٥، كما أنه لم يكن مفكراً نابهًا أو ذا مذهب فكرى متسق، ولكن ما حدث له يبين لنا أنه من المحال للمرء أن يستمسك بدين روحانى مثل اليهودية عن طريق الاعتماد على العقل وحده. إذ إن

"برادو" لم يكن يقيم الصلاة ولا يمارس الشعائر الدينية وما يدعمها من أسس المنطق الروحى ، فلم يستطع أن يهتدى إلاّ إلى أن "الإله" هو نفسه قوانين الطبيعة ، لكنه استمر ، على الرغم من ذلك ، فى مزاولة أنشطته السرية على امتداد عشرة أعوام أخرى ، ولم تكن "اليهودية" تعنى له ، فيما يبدو أكثر من الزمالة أو الأُخوّة أو ذلك الارتباط الوثيق الذى كان يستشعره بين أفراد جماعة توثقت عراها ، فهو الذى كان يمنح حياته ، فيما يبدو ، معناها ، ذلك أنه حين وصل إلى أمستردام ووقع الشقاق بينه وبين الحاخامات ، لم يتخلّ عن رغبته فى البقاء داخل المجتمع اليهودى . وكان يشبه "دا كوستا" فى أنه استمر يحرص على حقه فى التفكير والعبادة بالأسلوب الذى يراه . وكانت لديه فكرته الخاصة عن "اليهودية" ، وشعر بالفزع عندما صادف الحقيقة الناصعة . ورفع برادو صوته بما لديه من اعتراضات ، فتساءل : لماذا يعتقد اليهود أن الله قد اختارهم وحدهم ؟ وماذا كان ذلك الإله ؟ وتساءل أيضًا إن لم يكن من الأقرب إلى المنطق اعتبار أن الإله هو العلّة الأولى بدلاً من تصويره فى صورة شخص قام بإملاء مجموعة من القوانين الهمجية التى لا معنى لها ؟ وهكذا أصبح برادو مصدر إحراج لمجتمعه ، إذ كان الحاخامات يحاولون إعادة تثقيف "اليهود الجدد" القادمين من شبه جزيرة أيبيريا (وكان الكثيرون منهم يشاركون "برادو" فى آرائه) ولم يستطع الحاخامات أن يحتملوا إيمانه العقلانى ، فقرروا طرده من رحمة الكنيسة اليهودية فى يوم ١٤ فبراير ١٦٥٧ ، ومع ذلك رفض الخروج من المجتمع .

كان ذلك الصدام صدامًا بين نظرتين لا يمكن التوفيق بينهما على الإطلاق ، وكان "برادو" من وجهة نظره على صواب ، كما كان الحاخامات من وجهة نظرهم على حق ، إذ كان "برادو" لا يستطيع إدراك معنى اليهودية التقليدية بعد أن فقد عقلُه منطق الروح ، ولم تُتح له فى يوم من الأيام فرصة النفاذ إلى أعماق معنى الإيمان عن طريق العبادة والشعائر ، فاضُطر دائمًا إلى الاعتماد على العقل وعلى بصيرته الخاصة حتى لم يعد قادرًا على نبذ أى منهما . ولكن الحاخامات كانوا على حق أيضًا ، فالإيمان العقلانى عند "برادو" لم تكن تربطه أى علاقة بأى شكل من أشكال اليهودية التى يعرفونها . أما ما كان "برادو" يريده فهو أن يصبح "يهوديًا علمانيًا" ، ولم تكن تلك الفئة قد وجدت بعد فى القرن السابع عشر ، ولم يكن

بمقدور "برادو" أو بمقدور الحاخامات أن يضعوا لها مفهومًا واضحًا. وكان ذلك الصدام هو الأول فى سلسلة المصادمات التى وقعت بين صورة العالم الحديثة القائمة على العقلانية الكاملة، وبين تركيبة الفكر الدينى القائمة على العقيدة والعبادة ومنطق الروح.

وعلى نحو ما يشيع فى هذه المصادمات المبدئية، لم يحسن أى من الطرفين التصرف، إذ كان "برادو" رجلاً متغطرسًا، وكان يكيل السباب للحاخامات، بل هدد ذات يوم بمهاجمتهم فى الكنيس بسيفه المسلول، كما كان سلوك الحاخامات أنفسهم دون مستوى الشرف، إذ أرسلوا جاسوسًا يقفوه، وعاد الجاسوس فأخبرهم أن آراء "برادو" تزداد تطرفًا. والواقع أن "برادو"، بعد حرمانه من الرحمة الكهنوتيه، أعلن أن الدين كله هراء، وأن الحَكَمَ الأوحد الذى يبت فى "الحقيقة" يجب أن يكون العقل دائمًا، لا ما يسمى بالرؤى والتجليات. ولا يعرف أحد كيف انتهت حياة برادو، إذ أُرغم على الرحيل فلجأ إلى بلدة "أنتويرب"، وقال البعض إنه حاول حتى أن يتصالح مع الكنيسة الكاثوليكية، فإذا صحّ ذلك فلقد كانت الخطوة تنم عن اليأس، وتدل من جديد عن مدى استحالة حياة شخص عادى خارج حظيرة الدين فى القرن السابع عشر.

كان "برادو" و"دا كوستا" يمثلان طليعة الروح الحديثة وبوادرها. وتبين قصة كل منهما أن المنطق الروحى للدين السماوى يصعب الحفاظ عليه دون أداء التدريبات الروحية من صلوات وشعائر، فهى التى تغذى وتنمى عناصر الذهن الحدسية. أما العقل وحده فكل ما يستطيعه هو رسم صورة عقلانية باهتة للإله، سرعان ما يتخلى المرء عنها لأنها لا تساعده فى مواجهة الحزن أو عندما تصيبه الكروب. فإذا كان "برادو" و"دا كوستا" قد فقدا إيمانهما لأنهما حُرما من فرصة ممارسته، فإن يهوديًا آخر ممن تحولوا إلى المسيحية طوعًا أى من (المارانو) قد أثبت فى أمستردام أن ممارسة الملكات الذهنية قد تهيئ للمرء درجة كبيرة من الاستغراق والنشوة حتى لتنحسر معها حاجته إلى منطق الروح، وحتى يصبح هذا العالم هو موضوع التأمل وحده، وحتى يصبح البشر، لا الإله، معيار كل شىء، فإذا كان الإنسان ذا ذهن ثاقب فذّ، فقد تصبح ممارسة الملكات العقلية سبيله إلى لون من

الإشراق الروحي أو الصوفي، وكان ذلك أيضًا مما أتت به خبرات الحداثة.

ففي الوقت الذي أعلن فيه الحاخامات طرد برادو أول مرة من الرحمة الكهنوتية اليهودية، كانوا قد شرعوا في محاكمة "باروخ سبينوزا" الذي لم يكن تجاوز الثالثة والعشرين من عمره آنذاك، وكان قد ولد في أمستردام، على عكس "برادو" الذي جاء والداه من البرتغال حيث كانا يدعوان سرًا إلى العودة إلى اليهودية، وتمكنا في أمستردام من الانتقال إلى اعتناق اليهودية "الصحيحة". ولذلك فلم يتعرض سبينوزا مطلقًا إلى الاضطهاد أو الملاحقة، إذ عاش منذ مولده في أمستردام التي تتمتع بالحرية الفكرية التي تسود عالم من يدينون بغير اليهودية، وأتيحت له فرصة ممارسة عقيدته دون إيذاء. وكان قد تلقى التعليم التقليدي في مدرسة "كتر توراة" الممتازة، كما درس الرياضيات الحديثة والفلك والفيزياء. وكان المتوقع له أن يعمل بالتجارة، فكان يبدو عليه الإخلاص لدينه حتى عام ١٦٥٥، بُعيد وصول "برادو" إلى أمستردام، إذ توقف فجأة عن حضور الصلوات في الكنيس، وبدأ يعرب عن شكوكه. وقال إنه لاحظ وجود تناقضات في نص الكتاب المقدس، مما يثبت أنه ليس من عند الله بل من وضع البشر، وقال باستحالة التنزيل وإن "الاله" هو جماع الطبيعة نفسها لا أكثر. ولم يلبث الحاخامات أن أصدروا حكمهم بحرمانه من الرحمة الكهنوتية اليهودية وطرده، في ٢٧ يوليو ١٦٥٦، ولم يطلب "سبينوزا"، على عكس "برادو"، أن يبقى في المجتمع، بل رحب بالرحيل، وأصبح أول شخص في أوروبا ينجح في الحياة دون أن تصل إليه يد الدين الرسمي.

واستطاع "سبينوزا" أن يعيش في العالم غير اليهودي بسهولة، خلافًا لما حدث لكل من "برادو" و "دا كوستا"، فقد كان عبقريًا تمكن من الإفصاح بوضوح عن موقفه، كما استطاع بسبب ما كان يتمتع به من استقلال حقيقي في شخصيته، أن يتحمل وحشة العزلة التي جرها ذلك عليه. ولكنه كان يشعر بالانتماء إلى وطنه هولندا، وكان هناك من يرعاه ويقدم له معونة معقولة جعلته ينجو من حياة الفقر المدقع، ولم يكن "سبينوزا"، على عكس ما يفترضه الكثيرون، مضطرًا إلى صقل العدسات حتى يكسب رزقه، إذ لم يكن دافعه سوى اهتمامه بعلم البصريات،

ونجح فى إقامة صداقات مع بعض كبار العلماء والفلاسفة والسياسيين من غير اليهود فى زمانه، ولكنه ظل شخصية معزولة، فكان اليهود وغير اليهود يجدون عدم تديّنه مقززًا أو يبعث على القلق.

ومع ذلك فإن إلحاد سبينوزا كان يتضمن عنصرًا روحيًا لأنه كان يستشعر العالم باعتباره كيانًا إلهيًا، أى إنه كان يرى أن الله يحل فى واقع الوجود، وهى الرؤية التى كانت تفعم قلبه بالرهبة والدهشة، وكان يحس أن الدراسة الفلسفية والفكر شكل من أشكال الصلاة، وعلى نحو ما أوضح فى المقال الموجز عن الله (١٦٦١) كان يقول إن الإله ليس شيئًا يعرف بل هو مبدأ تفكيرنا، ومن ثم فإن الفرح الذى نستشعره عندما نكتسب المعرفة هو نفسه الحب الذهنى لله. وكان سبينوزا يعتقد أن من شأن الفيلسوف الحق أن يغرس وينمى ما كان يسميه بالمعرفة الحدسية، فهى بارقة من بوارق البصيرة القادرة على أن تصهر معًا جميع المعلومات التى جمعها العقل التحليلى، والتى تعتبر سر الإحساس بما يعتقد "سبينوزا" أنه الله. وكان يطلق على ذلك الإحساس تعبير "نعيم الغبطة"، فهى الحالة التى ينعم فيها الفيلسوف بإدراك استحالة انفصاله عن الله، وأن الله موجود فى داخل البشر أنفسهم، وكانت تلك فلسفة صوفية، ويمكن اعتبارها صورة عقلانية من الروحانية التى غرسها ورعاها "يوحنا الصليب"، و"تيريزا الأفيلية"، وإن كان "سبينوزا" لا يطيق ذلك اللون من البصيرة الدينية، بل يعتقد أن التشوق إلى إله متعالٍ من شأنه إبعاد الإنسان عن طبيعته، أما الفلاسفة المتأخرون فقد وجدوا فى محاولة "سبينوزا" وسعيه إلى نشوة "الغبطة" مبعث حرج للفكر الفلسفى، وأصبحوا يفضلون الاستغناء عن "إله" سبينوزا تمامًا، ومع ذلك فإن تركيز سبينوزا على هذا العالم وإنكاره لما وراءه يجعلانه من أوائل الفلاسفة العلمانيين فى أوروبا.

وكان "سبينوزا" يشترك مع الكثير من أبناء العصر الحديث فى نفوره من الأديان الرسمية، ولا ينبغى أن ندهش لذلك بعد أن طرده الكهنوت اليهودى وحرمه من رحمته، فكان يقول إن الأديان المنزلة تعتبر "خليطًا من سذاجة التصديق وألوان التحامل" بل و"نسيجًا من الألغاز التى لا معنى لها". ولقد تمكن من بلوغ النشوة فى الحرية المطلقة لعمل الذهن، لا بإغراق نفسه فى نص الكتاب المقدس،

واستطاع بذلك أن ينظر إلى هذه النصوص نظرة موضوعية خالصة، أى إنه لم يكن يعتبرها تنزيلاً إلهيًا بل كان يؤكد أن نص الكتاب المقدس لابد من قراءته مثل أى نص آخر، فكان بذلك من أوائل الذين درسوا الكتاب المقدس دراسة علمية، فقام بفحص الخلفية التاريخية، والأنواع الأدبية، ومسألة المؤلف. كما استخدم الكتاب المقدس فى استكشاف أفكاره السياسية، فكان "سبينوزا" من أوائل الأوربيين الذين دعوا لإقامة دولة علمانية ديموقراطية، باعتبار ذلك من مثله العليا، وما لبث أن صار ذلك من الطوابع المميزة للحداثة الغربية. وكانت حجته هى أنه عندما زادت سلطة الكهنة عن سلطة ملوك إسرائيل، أصبحت قوانين الدولة قوانين عقوبات وقيود. وكان يقول إن مملكة إسرائيل كانت فى الأصل مملكة ربانية ولكن الرب والشعب كانا يمثلان وحدة واحدة آنذاك فى نظر "سبينوزا"، مما أتاح لصوت الشعب أن يعلو ويسود، أما حين استولى الكهنة على السلطة فلم يعد فى وسع أحد أن يسمع صوت. ومع ذلك فلم يكن "سبينوزا" من أنصار الشعب أو العامة، بل كان من أنصار الصفوة أو النخبة، شأنه فى ذلك شأن معظم فلاسفة العصر السابق للحداثة، وكان يعتقد أن 'الجماهير' غير قادرة على التفكير العقلانى، ولذلك فهم فى حاجة إلى شكل من أشكال الدين حتى يظفروا بقدر يسير من التنوير، وإن كان لابد من إصلاح ذلك الدين حتى يستند لا إلى ما يسمى بالشريعة المنزلة بل إلى المبادئ الطبيعية للعدالة والأخوة والحرية.

كان سبينوزا دون شك من بشائر الروح الحديثة، وكتب له أن يكتسب فيما بعد صفات البطولة فى أعين اليهود العلمانيين الذين كانوا معجبين بخروجه المبدئى

(*) "العقيدة الألفية" Millenarianism إحدى ركائز "المشيحانية"، التى ترى أن "الماشيح" المخلص سيحكم العالم لمدة ألف سنة يسود خلالها العدل والسلام أرجاء الأرض. ورغم أن جذور هذه النزعة يهودية، فإن ثمة تجليات لها لدى حركات وشخصيات عدة لا تمت لليهودية بصلة، وهى تعكس اتجاهًا أعم لفرض نظام هندسى صارم على الكون مؤداه أن العالم يشهد فى ختام كل ألفية نهاية دورة زمنية تصاحبها أحداث حسام. فقد تنبأ العراف الفرنسى نوستراداموس (١٥٠٣ - ١٥٦٦) بنهاية العالم فى إحدى الدورات الألفية. وأصبحت هذه النزعة مركزية فى المسيحية البروتستانتية، كما أن صداها يتردد فى مقولة "نهاية التاريخ" (مع نهاية القرن العشرين) التى نادى بها المفكر الأمريكى المعاصر فوكوياما.

المسيرى، الموسوعة، م ٦ ص ص ١٣٩ : ١٤٢.

من حظيرة الدين. ولكن "سبينوزا" لم يكن له أتباع من بين اليهود في أثناء حياته، على الرغم مما أبداه الكثيرون من اليهود آنذاك من استعداد للتغير الجذرى. وفى الوقت الذى كان "سبينوزا" يصوغ فيه عقلانيته العلمانية، كان العالم اليهودى يتعرض لموجة جارفة من الحماس "المشيحانى" الذى جعل العقل، فيما يبدو، يذهب أدراج الرياح. وكانت تلك الحركة من أولى الحركات "الألفية"(*) أى المبشرة بألف عام من الهناء والرخاء، التى يشهدها العصر الحديث، وكانت ترسم للناس طريقًا دينيًا يمكنهم من قطع صلاتهم بالماضى المقدس والسعى إلى شىء جديد كل الجدة. وسوف نصادف مثل ذلك كثيرًا فى قصتنا، فما أقل الذين تمكنوا من فهم النخبة الفكرية التى دعت إلى الفلسفات العلمانية للحداثة، فالغالبية قد انتقلت إلى العالم الجديد عن طريق الدين، إذ وجدت فيه ما يبعث الاطمئنان من استمرار وتواصل مع الماضى، إلى جانب الأسس اللازمة للمنطق العقلانى الحديث فى إطار من منطق الروح.

ويبدو أنه بحلول منتصف القرن السابع عشر كان كثير من اليهود قد وصلوا إلى نقطة "القطيعة"، فلم يكن أحد من اليهود الآخرين فى أوروبا يتمتع بما كانت جالية "المارانو" تتمتع به من حرية فى أمستردام، ولو لم يختلط "سبينوزا" بغير اليهود ويدرس العلوم الجديدة ما تمكن من تحقيق انطلاقته الجديدة التى خالف فيها من سبقوه، أما فى سائر مناطق العالم المسيحى فكان اليهود مستبعدين من التيار الرئيسى للمجتمع. وعندما حل القرن السادس عشر، لم يكن يسمح لأحد من اليهود بالإقامة خارج الحى اليهودى الخاص الذى كان يطلق عليه لفظ "غيتو"، مما

(*) "القهال" Kaha or Kehillah كلمة عبرية بمعنى "جماعة"، وهى تشير إلى الجماعة اليهودية عمومًا، ولكن معناها الضيق يشير إلى الهيئة الإدارية المحلية أو المجلس الذى كان يدير شئون التجمعات اليهودية المختلفة. ويستند "القهال"، كشكل من أشكال الإدارة الذاتية، إلى الميثاق الذى أصدره ملك بولندا سيجسموند الأول عام ١٥٠١، وبحدد تنظيم "القهال". وكانت كل جماعة يهودية يديرها مجلس "قهال" مكون من سبعة أعضاء، ويتولى تنظيم جميع جوانب حياة الجماعة، سواء من حيث المسلك أو التعليم أو العلاقات الاجتماعية أو جمع الضرائب، إلا إن المهمة الرئيسية تمثلت فى جمع الضرائب من المحكومين لصالح الحكام. وفى البداية، كانت هذه المجالس تتبع الملك مباشرة، ولكن مع ضعف الملكية والحكومة المركزية فى بولندا، بدأ كبار النبلاء بالتعاون مع الحاخامات فى بسط سيطرتهم على تلك المجالس والتحكم فى اختيار أعضائها ومن ثم التحكم فى الجماعة اليهودية بأسرها. وقد انهار "القهال"=

أدى حتمًا إلى حياة اليهود حياة انطوائية. وزاد ذلك الانفصال من التعصب المعادى للسامية، وكان رد الفعل الطبيعى لدى اليهود هو المرارة والتشكك فى نوايا العالم الذى يضطهدهم. وأصبح "الغيتو" عالمًا مستقلاً، فكانت لليهود مدارسهم الخاصة، ومؤسساتهم الاجتماعية والخيرية، وحماماتهم ومدافنهم وسلخاناتهم. وكان الغيتو يتمتع بما يعتبر حكمًا ذاتيًا مستقلاً، فكان له ما يسمى "بالقهال"(*) (أى المجلس المحلى) التى تتكون من عدد من الحاخامات والحكماء المنتخبين الذين يديرون دفة القضاء فى المحاكم التى تطبق الشريعة اليهودية. والواقع أن "الغيتو" كان بمثابة دولة داخل الدولة، عالم قائم بذاته، ولم تكن لليهود صلات كبيرة بالعالم الخارجى غير اليهودى، بل وفى كثير من الأحيان لم تكن لديهم الرغبة فى مثل هذه الصلات. ولكن يبدو أن الكثيرين قد بدأوا يثورون على هذه القيود بحلول منتصف القرن السابع عشر، وكان الغيتو يقع عادة فى بعض الأحياء الفقيرة غير الصحية ويحيط به سور مرتفع، وكان ذلك معناه التكدس وانعدام فرص التوسع. ولم يكن هناك مكان لإقامة الحدائق حتى حين يكون الغيتو كبيرًا، كما كان عليه الحال فى روما أو البندقية. وكان الأسلوب الوحيد للتوسع الإسكانى هو التوسع الرأسى أى إضافة طوابق أخرى للمبانى القائمة، وكان ذلك فى حالات كثيرة فوق أسس غير قادرة على احتمال الزيادة، مما كان يؤدى إلى انهيار المبانى. وكانت أخطار الحرائق والأمراض تتهددهم باستمرار، وكان اليهود يُرغمون على ارتداء ملابس مميزة، ويتعرضون لقيود اقتصادية، وكثيرًا ما كانوا يقتصرون على العمل بالحياكة أو العمل بائعين جائلين باعتبارها الأعمال الوحيدة المتاحة لهم، ولم يكن يسمح لهم بإنشاء شركات تجارية كبيرة، وهكذا كانت نسبة كبيرة من السكان تعتمد على البر والإحسان. وأدى حرمان اليهود من ضوء الشمس والطبيعة إلى تدهورهم بدنيًا، كما كانوا يعيشون فى عزلة ذهنية ولا يحيطون بشىء من علوم أوروبا وفنونها، وكانت مدارسهم لا بأس بها، ولكن التلاميذ ظلوا يدرسون التوراة والتلمود فقط حتى بعد القرن الخامس عشر عندما

(*) إدارة ذاتية تحت وطأة التحولات السياسية والاجتماعية العميقة التى شهدتها أوروبا ، وبولندا أساسا ، منذ القرن السابع عشر .

المسيرى : الموسوعة . م ٤ ص ص ٦٩ : ٧٢ .

تحررت المواد الدراسية فى شتى أراضى العالم المسيحى. وكان استغراق اليهود فى نصوصهم واقتصارهم عليها وعلى تقاليدهم الثقافية سببًا فى نزوع التعليم اليهودى إلى التدهور بالتركيز على التفاصيل الدقيقة والسفاسف.

أما فى العالم الإسلامى فلم يكن اليهود يتعرضون لمثل هذه القيود، فكان المسلمون يعتبرونهم مثل النصارى من الذّميين (وأهل الذمة هم الأقلية التى تتمتع بالحماية) أى إنهم كانوا يتمتعون بالحماية مدنيًا وعسكريًا ما داموا يحترمون قانون الدولة الإسلامية وسيادتها. ولم يتعرض اليهود فى ظل الإسلام للاضطهاد إذ لم تكن هناك تقاليد عداء للسامية، وعلى الرغم من أن الذّميين كانوا يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية، فقد كانوا يتمتعون بالحرية الدينية الكاملة، وكان لهم أن يديروا شئونهم الخاصة وفقًا لشرائعهم، وكانوا أقدر من يهود أوروبا على المشاركة فى التيار الرئيسى للثقافة والتجارة. ولكن الأحداث تبين أن اليهود حتى فى العالم الإسلامى كانوا قد بدأوا يشعرون بالقلق ويحلمون بالمزيد من التحرر، فكانت الأنباء تصلهم منذ عام ١٤٩٢ عن الكوارث المتتالية فى أوروبا، وأصابهم الفزع فى عام ١٦٤٨ عندما بلغتهم أخبار الفظائع التى وقعت فى بولندا والتى ظلت بلا نظير فى التاريخ اليهودى حتى القرن العشرين.

كانت بولندا قد ضمت إلى أراضيها منطقة كبيرة من دولة أوكرانيا الحالية، حيث قام الفلاحون بتشكيل فرق من الفرسان لتنظيم الدفاع عنهم، وكان هؤلاء "القوزاق" يكرهون البولنديين واليهود، الذين كثيرًا ما كانوا يتولون إدارة أراضى النبلاء من البولنديين باعتبارهم وسطاء. وفى عام ١٦٤٨ قام أحد زعماء القوزاق واسمه "بوريس شميلنيكى"، بقيادة حركة تمرد على البولنديين، هاجم فيها المجتمعات المحلية للبولنديين واليهود أيضًا، وعندما انتهت الحرب أخيرًا فى ١٦٦٧، كان حصادها وفقًا لما يرويه المؤرخون، قتل ١٠٠٠٠٠ يهودى وتدمير ٣٠٠ مجتمع محلى يهودى. وعلى الرغم من احتمال وقوع المبالغات فى هذه الأرقام، فإن الخطابات التى كانت تصل إلى اليهود فى مناطق العالم الأخرى، وما قصه اللاجئون من قصص عليهم، ألقى الرعب فى قلوبهم، إذ جاء فيها وقوع مذابح مُزقت فيها أجساد اليهود إربًا، وحفر قبور جماعية وُئد فيها النساء

والأطفال اليهود، وإعطاء اليهود بنادق وأمرهم بأن يطلقوا النار على بعضهم البعض. واعتقد الكثيرون أن هذه الأحداث لابد أن تكون "آلام مخاض ميلاد الماشيح"، فانكبوا في يأسهم على طقوس القبّالة اللّورية وشعائر التوبة الخاصة بها، في محاولة للإسراع بقدوم الخلاص المشيحاني.

وعندما وصلت أنباء مذابح "شميلنيكي" إلى بلدة "سميرنا"، التي تقع في تركيا الحالية، كان يهودي شاب يسير وحده غارقًا في تأملاته خارج المدينة، فسمع صوتًا من السماء يقول له إنه "مخلص إسرائيل، الماشيح، ابن داود، الذي مُسح على رأسه بالزيت القدسي المُرسل من إله يعقوب". وكان اسم هذا الشاب "شابتاي زيفي"، وكان شابًا يهوى العلم والاطلاع، ويؤمن بالقبّالة (وإن لم يكن قد أصبح آنذاك متبحرًا في القبالاه اللّورية) ويفضي بتأملاته إلى مجموعة صغيرة من أتباعه. كان ذا شخصية جذابة، ولكنه عندما كان في نحو العشرين من عمره، بدأت تبدو عليه أعراض ما نسميه اليوم بالاكتئاب المرضي، فكان يختفي عن الأنظار أيامًا متوالية، غارقًا في أحزانه في غرفة صغيرة مظلمة، ولكن حالات الاكتئاب كانت تعقبها فترات هياج ولوثة "نورانية" فهو قلق مضطرب يعاني من الأرق ويشعر أنه متصل بالقوى العليا. وأحيانًا ما كان يشعر أنه مدفوع بحافز داخلي على عصيان أوامر التوراة، فيتلفظ علنًا باسم الإله المحرّم، مثلاً، أو يتناول طعامًا غير شرعي. ولم يكن يستطيع تفسير أسباب ارتكابه لهذه "الأفعال الغريبة"، ولكنه كان يقول إنه كان يحس أن الرب قد ألهمه أن يفعل ذلك لسبب ما. وما لبث أن أصبح مقتنعًا بأن هذه المعاصي دلائل إيمان طهّر روحه، وأن الرب "سوف ينزّل عليه في القريب العاجل شرعة جديدة ووصايا جديدة لإصلاح العالمين" أي إن هذه المعاصي كانت "خطايا قدسية" أو ما يمكن أن يطلق عليه القباليون اللّوريون تعبير أفعال "التيقون" أي العودة بمعنى الإنابة والمتاب، وقد نقول إنها كانت تمثل على الأرجح تمردًا لا شعوريًا على مظاهر الطاعة المعتادة في الحياة اليهودية وتعبيرًا عن رغبة مختلطة غامضة في شيء جديد كل الجدة.

وما لبثت تصرفات "شابتاي" أن أصبحت أكثر مما يحتمله اليهود في سميرنا فاضطر إلى مغادرة المدينة في عام ١٦٥٠، وبدأت بذلك فترة أطلق عليها اسم

"السنوات السوداء"، وهي السنوات الخمس عشرة التي قضاها طائفًا في ولايات الامبراطورية العثمانية، متنقلاً بين مدنها، دون أن يطلع أحدًا على رسالته المشيحانية، بل ربما يكون قد تخلى عن فكرة البعثة الخاصة نفسها، وما إن حل عام ١٦٦٥ حتى بدأ يشتاق إلى التخلص من شياطينه وإلى العمل حاخامًا، وكان قد سمع عن شاب قبّالي موهوب يقيم في غزة ويقوم بعمل الطبيب الشافي من الأمراض فقرر زيارته، وكان اسم هذا الشاب الحاخام "ناثان"، وكان قد سمع من قبل عن "شابتاي"، وربما كان ذلك إبّان إقامتهما معًا في بيت المقدس، دون أن يتعرف أحدهما على صاحبه. ومن المحتمل أن "الأفعال الغريبة" التي كان يقدم عليها "شابتاي" قد أحدثت تأثيرًا ما، استقر في مخيلة ناثان، لأنه تلقى وَحْيًا صوّر له "شابتاي" قبيل زيارة الأخير له. وكان "ناثان" قد تمرس في طقوس القبالاه اللّورية قبل فترة وجيزة، فاعتكف قبيل عيد النصيب اليهودي ("بوريم")(*) وأغلق على نفسه الأبواب وبدأ الصيام والبكاء وقراءة أناشيد الكتاب المقدس. وبينما هو يتهجد ذات ليلة إذ جاءته رؤيا "شابتاي" وسمع صوته وهو يهتف عاليًا بالنبوءة التالية "هذا قول الرب ! هذا مخلصكم قد أتى واسمه 'شابتاي زيفي'. ولسوف يصيح بل سوف يزأر وسوف ينتصر على أعدائي". وعندما فتح الباب فوجد "شابتاي" واقفًا على عتبة داره، لم يجد ناثان في ذلك إلا تأكيدًا خارقًا لصحة النبوءة في رؤياه.

كيف يتصور "ناثان"، وهو المفكر النابه، أن ذلك الرجل الحزين المهموم هو مخلّصه ؟ الإجابة هي أن القبالاه اللورية تقول إن روح الماشيح كانت حبيسة في المنطقة غير الربانية التي خُلقت إبان عملية الانكماش ("تسيم تسوم") الأولى، وهكذا كان على الماشيح منذ البداية أن يجاهد القوى الشريرة "للجانب الآخر"،

(*) "بوريم" Purim كلمة عبرية مشتقة من كلمة "بور" أو "فور" البابلية ومعناها "القرعة" أو "النصيب"، وتُطلق على عيد يهودي يُحتفل به في الرابع عشر من آذار (مارس)، إحياءً للذكرى اليوم الذي أنقذت فيه إستير يهود فارس من المؤامرة التي دبرت لذبحهم، حسب الرواية التوراتية. وكان قد تقرر بالقرعة أن يكون الذبح يوم ١٣ آذار، ومن هنا جاءت تسمية العيد بعيد "القرعة" أو "النصيب".

المسيري، الموسوعة، م ٥ ص ص ٢٦٧ : ٢٦٨.

وهكذا تصور "ناثان" أن طقوس التوبة القبّالية قد أرغمت القوى الشيطانية على إخلاء سبيل الماشيح، وأصبحت روحه قادرة على التحليق حرة طليقة من حين لآخر وعلى تنزيل الشرعة الجديدة للعصر المشيحاني. ولكن النصر كان لا يزال ناقصاً، وكانت قوى الظلام تنقضُّ على الماشيح من حين لآخر. وكان ذلك كله ينطبق في نظر ناثان على شخصية "شابتاي" وخبراته. وهكذا أخبره "ناثان" عند وصوله أن النهاية أصبحت قريبة، وسرعان ما يكتمل انتصاره على قوى الشر، فيأتي بالخلاص إلى الشعب اليهودي، وتلغى الشرعة القديمة، بحيث يصبح ما كان محرّمًا وآثمًا من الأفعال بمثابة أفعال مقدسة.

وكان "شابتاي" في البداية عازفًا عن تقبل خيالات "ناثان"، ولكنه اقتنع تدريجيًا بها، بفضل بلاغة الحاخام الشاب وفصاحة حججه التي فسرت "لشابتاي" - على الأقل - غرابة أطواره. وفي يوم ٢٨ مايو ١٦٦٥ أعلن "شابتاي" أنه الماشيح، وعلى الفور قام ناثان بإرسال خطابات إلى مصر وإلى حلب، وإلى "سميرنا" يعلن فيها أن الخلّص سوف يهزم السلطان في القريب العاجل، ويضع حدًا لإقامة اليهود في المنفى، ويقود مسيرة عودتهم إلى الأرض المقدسة. وقال إن جميع الأمم الأخرى سوف تخضع لحكمه، وسرت الأنباء مسرى النار في الهشيم، وما إن حل عام ١٦٦٦ حتى كانت الفورة المشيحانية قد ضربت جذورها في جميع الجاليات اليهودية في أوروبا تقريبًا، بل وفي الامبراطورية العثمانية وفي إيران. ووقعت أحداث محمومة إذ اندفع اليهود إلى بيع ممتلكاتهم استعدادًا للرحلة إلى فلسطين، فتوقف دولاب النشاط الاقتصادي. وكانوا أحيانًا ما يسمعون أن الماشيح قد ألغى أحد أيام الصوم التقليدية فيخرجون إلى الشوارع فرحين راقصين في مواكب ومسيرات. وأصدر "ناثان" الأوامر بأن يقوم اليهود بالتعجيل بحلول النهاية بأداء طقوس التوبة الصفدية(*)، وهكذا بدأ اليهود في أوروبا، ومصر،

(*) "طقوس التوبة الصفدية" Penitential rituals of Safed نسبةً إلى مدينة "صفد" (واسمها مشتق من الكلمة الكنعانية "صفت" بمعنى "العطاء")، التي تقع في منطقة الجليل في فلسطين. وترجع هذه التسمية إلى أن المدينة أصبحت منذ القرن السادس عشر مركزًا دينيا، إذ عاش فيها عدد من أهم رواد الفكر الصوفي اليهودي (القبالاه)، مثل لوريا وتلميذه حاييم فيتال، ومن ثم غدت المدينة موئلاً للدراسات القبالية.
المسيري، الموسوعة، م ٤ ص ص ١٢١ : ١٢٢.

وإيران، وبلدان شبه جزيرة البلقان، وإيطاليا، وأمستردام، وبولندا، وفرنسا، في الصيام، والتهجد، وغمر أنفسهم في الماء المثلج، والتدحرج على الأشواك، والتصدق على الفقراء. وكانت تلك أولى الصحوات الكبرى الكثيرة التي وقعت في مطلع العصر الحديث، إذ شعر الناس شعوراً غريزيا بمقدم التغيرات الكبرى. لم يكن الكثيرون يحيطون بمعلومات ضافية عن "شابتاي" نفسه، وكان يندر أن تجد من تبحر في خبايا رؤيا "ناثان" القبّالية، بل كانت الأغلبية يكفيها أن تعرف أن الماشيح قد أتى، وأن الأمل قد أصبح قريبًا بعد صبر طويل. وفي غضون هذه الشهور الزاخرة بالنشوة، عرف اليهود من بوارق الرجاء وفيض الحيوية ما كاد ينسيهم قسوة عالم 'الغيتو' وقيوده الصارمة. فلقد ذاقوا طعم شيء يختلف اختلافًا تامًا، فتحوّلت حياة بعضهم تحوّلا لا راد له.

واتضح من سلوك اليهود الذين تأثروا تأثراً مباشراً "بشابتاي" أو "ناثان" أنهم كانوا على استعداد للتخفف من أعباء التوراة، حتى ولو كان معنى ذلك انتهاء الحياة الدينية المعروفة لهم، فعندما كان "شابتاي" يقوم بزيارة كنيس يهودي مرتديًا مسوح الماشيح الملكية، فيعلن إلغاء صوم يوم من الأيام، أو ينطق باسم الإله المحرم التلفظ به، أو يأكل طعامًا محظوراً، أو يدعو امرأة لقراءة الكتاب المقدس في الكنيس، كان الناس يذهلون فرحًا، وإن كانت هناك استثناءات، بطبيعة الحال، إذ ظهر في كل جالية بعض الحاخامات وبعض أفراد الشعب العاديين ممن صدمتهم هذه التطورات، ولكن الناس من جميع الطبقات، الأغنياء منهم والفقراء، كانوا يتقبلون "شابتاي"، وكانوا، فيما يبدو، يرحبون بمذهب 'المعاصي الإيمانية' بعد أن رأوا أن الشريعة لم تفلح في إنقاذ اليهود، بل وأنها كانت فيما يبدو عاجزة عن إنقاذهم، إذ كان اليهود لا يزالون يتعرضون للاضطهاد، ولا يزالون يعيشون في المنفى، فأحس الناس أنهم على استعداد لتقبل الحرية الجديدة.

ولكن ذلك كله كان يحمل في طياته أخطاراً بالغة، فالقبالاه اللورية كانت تقوم على منطق الروح، ولم يكن المقصود بها أن تترجم إلى برامج سياسية عملية بهذا الأسلوب، بل أن تنير الحياة الداخلية للروح. فمنطق الروح والمنطق العقلاني، على تكاملهما، يمثلان مجالين منفصلين انفصالاً تامًا ولكل منهما وظيفته التي

تختلف عن وظيفة الآخر، وكانت السياسة تنتمي إلى مجال العقل والمنطق، وإذا كانت الأسطورة تمنحها معنىً ما، فلم يكن المقصود تفسيرها تفسيراً حرفيًا بالطريقة التي فسر بها "ناثان" الرؤيا الصوفية "لإسحاق لوريا". وقد يكون اليهود قد شعروا بأنهم أقوياء وأحرار وقادرون على التحكم في مصائرهم ولكن ظروفهم لم تكن قد تغيرت، إذ كانوا لا يزالون في الواقع ضعفاء، معرضين للأذى، ويعتمدون على النوايا الحسنة لحكامهم. ولقد كانت الصورة التي رسمها "لوريا" للماشيح الذي يصارع قوى الظلام بمثابة رمز قوي للكفاح العالمي ضد الشر، ولكنه عندما بُذلت محاولةٌ لتجسيد تلك الصورة عمليًا، في شخص حقيقي مهتز عاطفيًا فلابد أن تكون العاقبة وخيمة.

وكان ذلك هو ما حدث بالفعل. ففي فبراير ١٦٦٦ انطلق "شابتاي" في طريقه لمواجهة السلطان، مسلحًا بدعم "ناثان" له، ولكن السلطان كان يتابع في فزع مفهوم ذلك الحماس اليهودي الذي زاد عن حده، وكان يخشى - محقًا - وقوع تمرد من لون ما، وهكذا ما إن رست سفينة "شابتاي" بالقرب من ميناء "غاليبولي" حتى أُلقي القبض عليه، وسيق إلى السلطان، حيث خُيِّر بين الموت وبين اعتناق الإسلام. وصعق اليهود في شتى أرجاء الأرض حين اختار "شابتاي" الإسلام، وكان معنى ذلك أن الماشيح نفسه قد ارتد عن الدين.

كان المفترض أن تكون في ذلك نهاية المسألة كلها، والواقع أن الغالبية العظمى من اليهود انصرفوا متقززين عن "شابتاي"، وعادوا - في خزي - إلى حياتهم المعتادة وإلى الانصياع الكامل للتوراة، حريصين على نسيان القضية المؤسفة برمتها. ولكن أقلية لا يستهان بها لم تستطع التخلي عن ذلك الحلم من أحلام الحرية، ولم يكونوا ليتصوروا أن استشعارهم الحرية على امتداد تلك الشهور التي أدارت رؤوسهم كان وهمًا، فتقبلوا فكرة المسياح المرتد عن الدين، قائلين إن المسيحيين الأوائل قد تقبلوا فكرة لا تقل بشاعتها عنها وهي أن يموت المسيح ميتة مجرم عادي.

وبعد فترة اكتئاب عميق، تمكن "ناثان" من تعديل فكرة اللاهوتي، فأوضح لمريديه أن الخلاص قد بدأ ثم تعرض لنكسة، مما اضطر "شابتاي" إلى الهبوط إلى

عمق أكبر فى دنيا النجاسة واتخاذ شكل الشر بنفسه، أى إن ذلك كان يمثل أقصى صور "الخطايا المقدسة" والخطوة النهائية للعودة ("تيكون") وتفاوتت ردود فعل "الشابتيين" - أى الذين استمروا على إخلاصهم لشابتاى - إزاء هذا التطور، بعد اكتساب هذا اللاهوت "الناثانى" شعبية كبيرة فى أمستردام، إذ إن المسياح أصبح من المارانو، فهو يستمسك سراً بجوهر اليهودية ويتفق فى ظاهر سلوكه مع الإسلام. فأما "المارانو" الذين طالما أرهقتهم التوراة فكانوا يتطلعون إلى موتها الوشيك بمجرد اكتمال الخلاص، وأما غيرهم من اليهود فكانوا يعتقدون أن عليهم أن يواصلوا الالتزام بالتوراة حتى يأتى الماشيح لهم بالخلاص الكامل، ولو أنه سوف يرسى دعائم شريعة جديدة تناقض الشريعة القديمة فى كل شىء، وكانت هناك أقلية من "الشابتيين" الثوريين الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك، إذ استعصى عليهم أن يعودوا إلى الشريعة القديمة، ولو بصورة مؤقتة، وكانوا يعتقدون أن على اليهود أن يتبعوا ماشيحهم فى دنيا الشر فيرتدوا هم أيضاً عن الدين، وهكذا تحولوا إلى اعتناق الدين السائد فى المجتمع - أى المسيحية فى أوروبا، والإسلام فى الشرق الأوسط - وظلوا يهوداً فى حياتهم الخاصة بمنازلهم. وكان هؤلاء الثوريون بمثابة المبشرين بأحد الحلول اليهودية الحديثة، إذ أصبح كثير من اليهود قادرين على استيعاب ثقافة غيرهم فى معظم جوانبها، مع الإبقاء على عقيدتهم فى حياتهم الخاصة، والحفاظ عليها فى نطاق منفصل.

وكان "الشابتيون" يتصورون أن "شابتاى" كان يتعذب فى حياته المزدوجة، ولكنه كان يبدو فى الحقيقة راضياً كل الرضى عن شخصيته الإسلامية. فكان يقضى أيامه فى دراسة الشريعة الإسلامية، وفى تعليم اليهودية للمستشار الروحى للسلطان. وكان يُسمح له باستقبال الزوار، وبعقد مجالسه الخاصة، واستقبال وفود اليهود من شتى أنحاء العالم، وكانوا يتحدثون عن ورعه العميق. وكان "شابتاى" كثيراً ما يشاهد فى منزله وهو جالس يحتضن لفائف التوراة بين يديه ويترنم بالأناشيد المقدسة، وكان الناس يعجبون من إخلاصه وقدرته الرائعة على النفاذ إلى مشاعر الآخرين واستمالتها. وكانت الأفكار المطروحة فى دائرة "شابتاى" تختلف اختلافاً كاملاً عن الأفكار المطروحة فى دائرة "ناثان"، وكانت تتسم بمزيد من الإيجابية تجاه غير اليهود. والظاهر أن "شابتاى" كان يرى أن

جميع الأديان صحيحة، وكان يرى نفسه بمثابة الجسر الذى يصل بين اليهودية والإسلام، كما كان مفتونًا بالمسيحية وبعيسى عليه السلام. وكان الزوار يقولون إنه أحيانًا يسلك سلوك المسلم، وأحيانًا سلوك الحاخام، وسمح العثمانيون له بالاحتفال بالأعياد اليهودية، وكثيرًا ما كان يشاهد ممسكًا بالمصحف فى إحدى يديه، وبلفافة من لفائف التوراة فى اليد الأخرى. أما فى الكنيس فكان "شابتاى" يحاول إقناع اليهود بالتحول إلى الإسلام، وكان يقول لهم إنهم لن يستطيعوا العودة إلى الأراضى المقدسة إلا إذا اعتنقوا الإسلام. وقد أنكر "شابتاى" بشدة، فى خطاب كتبه عام ١٦٦٩، أنه اعتنق الإسلام كرهًا، قائلاً إن الدين الإسلامى هو "الحق بعينه" وإنه قد أرسل باعتباره الماشيح إلى الأمّيين مثلما أرسل إلى اليهود.

وكانت وفاة "شابتاى" يوم ١٧ سبتمبر ١٦٧٦ بمثابة ضربة قاصمة "للشابتيين"، لأنها قضت فيما يبدو على كل أمل فى الخلاص. ومع ذلك فقد ظلت تلك الطائفة قائمة فى الخفاء، فأثبتت بذلك أن الانفجار المسياحى لم يكن حدثًا شاذًا أو عارضًا، بل كان قد مس شيئًا أساسيًا فى الحياة اليهودية. وكان البعض يرى فى هذه الحركة الدينية جسرًا يتيح لهم الانتقال فى وقت لاحق إلى العصر العقلانى الحديث، على صعوبة هذا الانتقال. ونستدل من السرعة التى ميزت استعداد الكثيرين للتخلص من عبء التوراة، وإصرار "الشابتيين" على أن يحلموا بشرعة جديدة، على أنهم كانوا على استعداد لتصور التغيير والإصلاح. ويقول "جيرشوم شوليم"، الذى كتب أدق دراسة عن "شابتاى" و"الشابتية"، إن عددًا كبيرًا من الشابتيين الكتومين هم الذين أصبحوا روادًا للتنوير اليهودى أو لحركة الإصلاح. وهو يذكر "جوزيف فيهته"، من مدينة براغ، الذى قام بنشر أفكار التنوير فى أوروبا الشرقية فى أوائل القرن التاسع عشر، وكان "شابتيًا" فى يوم من الأيام، ويذكر "هارون شوفين"، الذى أدخل حركة الإصلاح إلى المجر، والذى كان "شابتيًا" فى شبابه. ورغم الخلاف الذى أثير بشأن نظرية "شوليم"، بحيث أصبح من المحال إثبات صحتها أو بطلانها، فالمعترف به بصفة عامة هو أن الشابتية ساهمت إسهامًا كبيرًا فى تقويض سلطة الحاخامات التقليدية وأنها مكنت اليهود من تصور حدوث التغيير الذى كان يمكن أن يبدو، يومًا ما، محظورًا أو محالاً.

وبعد وفاة "شابتاى" ظهرت حركتان "شابتيّتان" ثوريتان كان من ثمارهما دخول اليهود، بصورة جماعية، فى الدين السائد، ففى عام ١٦٨٣ تحولت نحو ٢٠٠ أسرة إلى الإسلام فى تركيا العثمانية، وكان يطلق على هذه الطائفة لفظ "دونمه" أى الذين تحوّلوا، وكان لهم أكثر من كنيس سرى، ولو أنهم كانوا يصلّون فى المساجد أيضًا. ووصل عدد أفراد الطائفة عندما بلغت ذروتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نحو ١١٥٠٠٠ فردًا ولكنها كانت قد بدأت تتفكك فى مطلع القرن التاسع عشر، عندما بدأ أعضاؤها يتلقون تعليمًا حديثًا علمانيًا ولم يعودوا يرون أنفسهم بحاجة إلى أى دين من الأديان. بل إن بعض شباب "الدونمه" قد شاركوا بنشاط فى التمرد العلمانى الذى قامت به حركة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨. أما الحركة "الشابتية" الثانية فكانت خبيثة وبيّنت أن العدميّة يمكن أن تنشأ من الترجمة الحرفية لمنطق الروح إلى واقع عملى. وكان زعيم هذه الحركة يدعى "جاكوب فرانك" (١٧٢٦ - ١٧٩١) الذى انضم إلى "الشابتية" أثناء زيارة قام بها إلى البلقان، وعندما عاد إلى وطنه بولندا قام بتكوين طائفة سرية يطيع أفرادها الشريعة اليهودية علنًا ويمارسون المباذل الجنسية المحظورة سرًا، وعندما حُرم الرحمة الكهنوتية فى عام ١٧٥٦ تحول أول الأمر إلى الإسلام (إبّان زيارة قام بها لتركيا) ثم إلى الكاثوليكية واصطحب معه أتباعه.

لم يكتف "فرانك" بنبذ القيود التى تفرضها التوراة، بل اعتنق الرذيلة اعتناقًا صريحًا، وكان يرى أن التوراة ليست نصوصًا بالية عفا عليها الزمن فحسب، بل هى نصوص خطرة أيضًا ولا غَناء فيها. وكان يقول إن الوصايا تمثل شرائع الموت ولابد من طرحها، وأما الخطيئة وانعدام الحياء فهما السبيلان الوحيدان لتحقيق الخلاص والوصول إلى الإله. ولم يكن "فرانك" يهدف إلى البناء بل إلى "الهدم ودمار العدم". وكان أتباعه يشنون حربًا على جميع القواعد الدينية: "أقول لكم إن على كل من يريد أن يصبح محاربًا أن يتخلى عن الدين، ومعنى ذلك أنه لابد أن يبلغ الحرية معتمدًا على قوته وحده" وكان فرانك، مثل الكثيرين من العلمانيين اليوم، يعتبر كل الأديان ضارة. ومع استمرار الحركة، تحول 'الفرانكيون' إلى السياسة، فغدوا يحلمون بثورة كبرى قادرة على أن تطيح بالماضى وتنقذ العالم. ورأوا فى الثورة الفرنسية ما يثبت صدق رؤياهم، وأن الرب قد تدخّل لصالحهم.

لقد استبق اليهود كثيراً من أوضاع العصر الحديث. وكان صدامهم الأليم مع مجتمع أوروبا العدواني الداعي إلى الحداثة، قد أدى بهم إلى العلمانية، والشك، والإلحاد، والعقلانية، والعدمية، والتعددية، وحصر الدين في الحياة الخاصة. وكان معظم اليهود يرون أن الطريق إلى العالم الجديد، الذي كان ينشأ ويتطور في الغرب، لابد أن يكون الدين سبيله، ولكن ذلك الدين كان يختلف اختلافًا بيّنًا عن نوع الدين الذي اعتدناه في القرن العشرين، إذ كان يعتمد اعتماداً أكبر على منطق الروح، ولم يكن يقرأ الكتب المقدسة قراءة حرفية، وكان على استعداد كامل للإتيان بحلول جديدة كان بعضها يبدو مفزعًا، في سياق البحث عن شيء جديد. أما إذا أردنا فهم الدور الذي نهض به الدين في المجتمع الذي سبق العصر الحديث فعلينا أن نيمم وجوهنا صوب العالم الإسلامي الذي كان يمر بتحولاته الخاصة في أوائل هذه الفترة الحديثة، ويعمل على إنشاء صور مختلفة من الروحانية التي كتب لها أن تستمر في التأثير في المسلمين بعد وقت طويل من بداية العصر الحديث.